مجلة جامعة الملك سعود، م١٧، العلوم التربوية والدراسات الإسلامية (١)، ص ص ٢٩٩ -٣٤٧ (١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م)

الظن بين الناس في القرآن الكريم : دراسة موضوعية

فلوة بنت ناصر بن حمد الراشد

أستاذ التفسير وعلوم القرآن المساعد، بقسم الدراسات الإسلامية، كلية التربية للبنات بالرياض

(قدم للنشر في ٨/ ١/ ١٤٢٤هـ؛ وقبل للنشر في ١٣/ ٩/ ١٤٢٤هـ)

ملخص البحث. أتت الشريعة الإسلامية ببعض الأوامر والنواهي والآداب التي تكفل للمجتمع تماسكه، وتنشر المحبة بين أفراده. وقد طالعتنا سورة الحجرات بجملة من الآداب التي توصل لهذا الغرض. ومن بينها النهي عن الظن.

وهذا البحث في مجال التفسير الموضوعي يلقي الضوء على الظن بين الناس ويبين ما يترتب عليه من آثار على الفرد والمجتمع، فجمعت الآيات الواردة حول هذا الموضوع لاستخراج هداياتها ودلالاتها.

فبينت من خلال عرض البحث: معنى الظن، وأقسامه باعتبارات مختلفة حسب ما يتعلق به، والمراحل التي يمر بها الظن داخل النفس الإنسانية إلى أن يصل إلى المحظور وبالتالي بيان العلاج المناسب في كل مرحلة، ثم بينت أسباب سوء الظن والآثار المترتبة عليه وكذلك أسباب حسن الظن والآثار المترتبة عليه، وأخيرًا هدي القرآن في التعامل مع ظنون الغير.

المقدمــــة

الحمد لله الواحد القهار العزيز الغفار مكور الليل والنهار تذكرة لأولي القلوب والأبصار، أحمده أبلغ حمد وأزكاه وأشمله وأنماه وأشهد أن لا إله إلا الله البر الكريم ،

الرؤوف الرحيم وأشهد أن محمدًا رسول الله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه وتابعيهم بفضل وإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد فإن الاعتدال في الأخلاق هو الصحة في النفس، والميل عن الاعتدال سقم ومرض، ومثال النفس في علاجها كالبدن في علاجه ؛ فكما أن البدن لا يكمل إلا بالتغذية، فالنفس تكمل بالتزكية وتهذيب الأخلاق والتغذية بالعلم ، وقد جاءنا الشرع بمنهج كامل لتربية النفس وتزكيتها وتعليمها ما فيه صلاحها وسعادتها في ذاتها وفي تعاملها مع غيرها. فإن هي التزمت بما أرشدها إليه ربها عادت قريرة العين مغتبطة، وسعدت في نفسها ولم تؤذ أحدًا من حولها، وعلى قدر تخلفها في الامتثال يكون تخلف النتائج ، ومن الأمور التي نبه الشرع على حكمها الظن بالإخوان، إذ عليه مدار كبير في سعادة الإنسان أو شقاوته في نفسه من جهة ، وحماية أعراض المسلمين أو هتكها من جهة أخرى.

وهذا البحث يلقي الضوء على هذا الموضوع فهو دراسة قرآنية جمعت فيه الآيات المتعلقة بهذا الموضوع لمحاولة استنباط هداية القرآن في رسم المنهج القويم في الظن ؛ إذ هو من صفات النفس البشرية وأحد منافذ الشيطان لإحداث الفرقة بين المسلمين، فشرور النفس مركب للشيطان ومنفذ لإغوائها.

وقسمته إلى سبعة مباحث: الأول في معنى الظن ، والثاني في مجالات الظن عامة باعتبار الأحكام التكليفية، والثالث في أقسام الظن بين العباد من حيث ما بني عليه ، والرابع في مراحل نشأة الظن في النفس ، والخامس في أسباب الظن وآثاره، والسادس في هدي القرآن في التعامل مع ظنون الآخرين ثم السابع في بعض مجالات الظن غير ماذكر.

كما أشير إلى أن ذكر آثار الظن على المجتمع كانت على سبيل الإيجاز باعتبار أن العمل بالظن مثل التجسس والغيبة وتصنيف الناس هو موضوع بحث آخر يعد امتداداً لهذا البحث.

المبحث الأول : معنى الظن

الظن : في اللغة التردد الراجح بين طرفي الاعتقاد الغير الجازم. والظِّنة : التهمـــــة. [٤٤ ، جـ ٤ ، ص ٢٤٥]

والظَّنِين: المتهم الذي تظن به التهمة ومصدره الظِّنَّة والجمع الظِّنَن، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴾[التكوير: ٢٤] أي بمتهم وفلان يظن به : أي يُفتعل، أي يتهم به ، وهو موضع ظنتي أي تهمتي. ومظنة الشيء : موضعه ومألفه الذي يظن كونه فيه والجمع المظان. [١٧ ، جـ٨ ، ص ١٥١ ؛ ٤٣ ، جـ١ ، ص ٥٩٩ ؛ ٥٧ ، جـ١٣ ، ص ٢٧٣]

والتظني : إعمال الظن وأصله : التظنن [٤٣ ، جـ١ ، ص ٥٩٩]، وقيل معناه التحري.[١٧ ، جـ٨ ، ص ١٥٢]

والظنون : الرجل السيء الظن بكل أحد[١٧ ، جـ٨ ، ص ١٥٢]، والظنون القليل الخير ، والظنة أيضًا القليل من الشيء: ومنه بئر ظنون أي قليلة الماء لا يوثق بمائها ، وفي الحديث (فنزل على ثمد بوادي الحديبية ظنون الماء يتبرضه تبرضًا) [أخرجه البخاري: كتاب الشروط ، باب الشروط في الجهاد ١٤ ، ، جـ٥ ،ص ٣٢٩] ، والماء الظنون الذي تتوهمه ولست منه على ثقة وهو راجع إلى الظن والشك والتهمة. [٥٧ ، جـ ١٣ ، ص ٢٧٥]

وحاصل تلك المعاني ترجع إلى أن الظن : شك ، لكنه قد يأتي بمعنى ضده وهو اليقين. يقول ابن قتيبة : "قد يسمى المتضادان باسم واحد والأصل واحد فيقال لليقين ظن وللشك ظن" [٤٧ ، ص ١٨٧]

وقال الخليل : "الظن يكون بمعنى الشك وبمعنى اليقين كما في قوله تعالى ﴿ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ ﴾ أي يتيقنون [سورة البقرة : ٤٦][١٧ ، جـ٨ ، ص

١٥٢]وبه قال أبو عبيدة [٣٧ ، جـ١ ، ص ٣٩] ، والزجاج [٢٥ ،جـ١ ، ص ١٢٦] ، والراغب[٢٣ ، ص ٣١٧] ، والدامغاني[١٩ ، جـ٢ ص ٦١] وغيرهم.

وسبب استعمال الظن في معنى اليقين كما قال ابن قتيبة لأن فيه طرفًا من اليقين [٤٧ ،ص ١٨٧] ، ووضح الراغب ذلك فقال : الظن اسم لما يحصل عن إمارة، ومتى قويت أدت إلى العلم، ومتى ضعفت جدًا لم يتجاوز حد التوهم [٢٣ ، ص٣١٧] .

ولذلك قال الزجاج في هذا السياق : "وقد قال بعض أهل العلم من المتقدمة إن الظن يقع في معنى العلم الذي لم تشاهده وإن كان قام في نفسك حقيقته" [٢٥ ، جـ١ ، ص ١٢٦] وقال في المحكم "الظن شك ويقين إلا أنه ليس بيقين عِيان إنما هو يقين تدبر، فأما يقين العيان فلا يقال فيه إلا علم" [٥٧ ، جـ١٣ ، ص ٢٧٢].

ومجال البحث هو المعنى الأول وهو الشك.

ومما يجدر بيانه هنا أن هناك مصطلحات لغوية قد تشترك مع الظن في المعنى العام، وتفارقه في جزء من المعنى مثل : الريب ، والشك. وللتفريق بين تلك المصطلحات نجد أنها تجتمع في عدم حصول العلم اليقيني الجازم ويفترق كل مصطلح بالآتي :

أن الريب : هو أن تتوهم بالشيء أمرًا ، فينكشف عما تتوهمه أي خلافه [٢٣ ، ص ٢٠٥] ، فهو المرجوح من الاحتمالات لقيام الدليل على خلافه.

والشك : هو اعتدال النقيضين عند الإنسان وتساويهما وذلك قد يكون لوجود أمارتين متساويتين عند النقيضين [٢٣ ، ص ٢٦٥] . فيحصل التذبذب بين الاحتمالات.

والظن : اسم لما يحصل عن أمارة ، ومتى قويت أدت إلى العلم. [٢٣ ، ص ٣١٧]

وعليه فالظن يترجح فيه احتمال من الاحتمالات بدليل شرعي أو عقلي أو نفسي مع كون البعد النفسي مؤثر قوي في الظن وقد يكون إيجابيًا وقد يكون سلبيًا. وفي غالب

الأحوال ينبثق منه تصنيف الظن إلى ظن حسن وظن سيء وسيأتي مزيد بيان في المباحث اللاحقة عن تأثير البعد النفسي في الظن من حيث الحسن والسوء.

والظن في القرآن استعمل فيما بين العبد وربه، واستعمل أيضًا فيما بين العباد.

وقد كان عدد مرات ورود هذه الكلمة بمشتقاتها في القرآن (٦٩) مرة لكن غالب استعمال الظن فيها يتعلق بوجه أو بآخر بعلاقة العبد بربه فتارة يكون الظن في مجال البعث واليوم الآخر، وتارة يكون في صدق الأنبياء فيما جاءوا به من الوحي، وتارة يكون الظن في ذات الله.

ومجال البحث هو ما كان من ظن بين العباد، وما له من أثر في تماسك المجتمع أو تفككه. لكن يحسن قبل الدخول في تفريع الظن بين العباد أن نستعرض بشكل مجمل مجالات الظن عامة، وهو موضوع المبحث التالي.

المبحث الثاني: مجالات الظن عامة باعتبار أقسام الأحكام التكليفية

قسم المفسرون مجالات الظن إلى أقسام بحيث تجري عليه الأحكام التكليفية المختلفة من محرم ومباح ومندوب ومأمور به ومن أمثلة الظن في القرآن حسب تلك الأحكام ما يلي:

الحالة الأولى: الظن المحظور أو المحرم

كالظن في الإلهيات والنبوات [١، جـ١٦، ص ١٥٦] فسوء الظن بالله من صفات المشركين والمنافقين، فقد قال الله عنهم ﴿ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ [الفتح: ٦] وهذه الظنون

تشمل ظنونهم الفاسدة من الشرك كما في قوله : ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ﴾ [يونس : ٦٦] ومن انتفاء رؤية الله تعالى للأشياء وعلمه بها كما في قوله : ﴿ وَلَـٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [فصلت : ٢٢] [١٦ ، جـ٨ ، ص ٩١].

وعمومًا فإنه ما نجمت العقائد الضالة والمذاهب الباطلة إلا من الظنون الكاذبة، قال تعالى : ﴿ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ﴾ [آل عمران : ١٥٤] وقال ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ﴾ ثم قال : ﴿ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾[الأنعام : ١٤٨] [٣٦ ، جـ ٢٦، ص ٢٥١].

ويدخل في هذا القسم ظن السوء بالمسلمين الذين ظاهرهم العدالة وهذا جزء من موضوع البحث وسيأتي تفصيله لاحقًا – إن شاء الله.

الحالة الثانية: المأمور به

وهو ما لم ينصب عليه دليل يوصل إلى العلم به، وقد تُعُبِّدنا بتنفيذ الحكم فيه والاقتصار على غالب الظن وإجراء الحكم عليه واجب وذلك نحو ما تعبدنا به من قبول شهادة العدول، وتحري القبلة وتقويم المستهلكات وأروش الجنايات التي لم يرد بمقاديرها توقيف، فهذا وما كان من نظائره تعبدنا فيه بأحكام غالب الظنون [١١ ، جـ٧ ، ص ٤٦٩ ؛ ٤٠، جـ ٢١ ، ص ١٣٧ ؛ ١ ، جـ ٢٦ ، ص ١٥٦].

وضابط ذلك كما قال القرطبي "أن للظن حالتين : حالة تعرف وتقوى بوجه من وجوه الأدلة فيجوز الحكم بها، وأكثر أحكام الشريعة مبنية على غلبة الظن كالقياس وخبر الواحد وغير ذلك من قيم المتلفات وأروش الجنايات. والحالة الثانية : أن يقع في

النفس شيء من غير دلالة، فلا يكون ذلك أولى من ضده فهذا هو الشك فلا يجوز الحكم به فهو المنهي عنه" [٥٠ ، جـ ١٦ ، ص ٣٣٢].

ومن أمثلته أيضًا: حسن الظن بالله عز وجل [١ ، جـ ٢٦ ، ص ١٥٦] ، وفي الحديث "لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله عز وجل" (أخرجه مسلم: كتاب الجنة، باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت) [٥٩ ، جـ١٧ ، ص ٢٠٩]. بل إن مقامات الدين العالية قائمة على ذلك كالتوكل.

الحالة الثالثة: الظن المباح

كالظن في الأمور المعاشية [١ ، جـ ٢٦ ، ص ١٥٦] وكالشاك في الصلاة إذا كان إمامًا، أمره النبي صلى الله عليه وسلم بالتحري والعمل على ما يغلب في ظنه، وإن فعله كان مباحًا، وإن عدل عنه إلى البناء على اليقين كان جائزًا [١١ ، جـ٧، ص ٤٦٩ ؛ ٤٠ ، جـ٢١ ، ص ١٣٧].

ويرد على هذا الظن بأهل الفسق والسوء إذا ظهرت عليهم أمارات الفسق، قال القرطبي "وأكثر العلماء على أن الظن القبيح بمن ظاهره الخير لا يجوز، وأنه لا حرج في الظن القبيح بمن ظاهره القبح" [٥٠ ، جـ١٦ ، ٣٣٢].

وسيأتي مزيد تفصيل عن هذه الحالة في ثنايا البحث – إن شاء الله –.

الحالة الرابعة: الظن المندوب إليه

ويرد في ذلك إحسان الظن بالأخ المسلم يندب إليه ويثاب عليه، وقد امتدح الله من ظن خيرًا بأم المؤمنين عائشة – رضي الله عنها – بعد ذيوع خبر الإفك فقد قال تعالى: ﴿ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴾ . [النور: ١٢] وسيأتي مزيد تفصيل عن هذه الحالة في ثنايا البحث – إن شاء الله –.

المبحث الثالث:

أقسام الظن بين العباد من حيث ما بني عليه

المتأمل في آية الباب في الظن وهي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ يجد أن الظن قد قسم فيها إلى نوعين: إثم ويقابله غير إثم. وهذا تقسيم للظن من حيث ما قد يؤول إليه لا من حيث أحواله وأسبابه فلم تبين الآية توضيحًا لأنواع الكثير من الظن المأمور باجتنابه لأنها أنواع كثيرة، فنبه على عاقبتها وترك التفصيل، لأن في إبهامها بعثًا على مزيد الاحتياط فيعلم من قوله (كثيرًا) أن الظنون الآثمة غير قليلة، وعليه يجب التمحيص لتمييز الظن الباطل والظن الصادق [٣٦، جـ ٢٦، ص ٢٥١].

ولما لم ينه عن كل الظن بل قال (كثير)، ولما لم يكن للنفس مناص أن تقع في الظن إجمالاً نظرًا لما تشاهده من الأحوال والقرائن، وما تختلج النفوس من الأحاسيس والمشاعر، دل على أن هناك تقسيم للظن عن طريق التمحيص والتمييز لأحواله وقد ندبنا الشرع إلى ذلك من خلال هذا التحذير العام الوارد في الآية. وعليه فإن الظن بهذا الاعتبار حالتان:

الحالة الأولى: حالة تعرف وتقوى بوجه من وجوه الأدلة.

الحالة الثانية: أن يقع في النفس شيء من غير دلالة فلا يكون ذلك أولى من ضده.

على أن هناك من يقسم الظن باعتبار آخر فيجعله ينقسم إلى: حسن الظن، وسوء الظن.

وهذا تقسيم يرجع إلى نوع المظنون به فهو تقسيم يجري على الحالتين المذكورتين فيكون التقسيم بالاعتبار الأول هو الأصح لأنه يرجع إلى حقيقة الظن وماهيته، لذا

سأفصل القول في تلك الحالتين ليتضح متى يعد الظن إثمًا ومتى لا يعد من خلال استقراء الآيات الواردة في ذلك.

الحالــة الأولــى:

وهي التي تقوى فيها الأدلة بوجه من الوجوه ، ولا نقول تتحقق لأنه مع تحقيق الأدلة لا يسمى ظنًا.

فإذا توافرت بعض الأمارات على أمر ما وقويت الأدلة فلا حرج في الظن، هذا سواء كان ظنًا حسنًا أم سيئًا ، كل بحسبه. فيناط الظن بدليله، ونذكر على ذلك أمثلة :

١ - فمثلا يجوز إساءة الظن بمن يتعاطى الريب والمجاهرة بالخبائث كالدخول والخروج إلى مظانه من أماكن الفساد، فمثل هذا يقوى الظن فيه أنه ليس من أهل الصلاح ولا إثم فيه وإن كنا لا نراه يشرب الخمر فهذا لا يُحسن الظن به [١٦ ، جـ٨ ، ص ١١٤ ؛ ١ ، جـ ٢٦ ، ص ١٥٦].

قال القرطبي "وأكثر العلماء على أن الظن القبيح بمن ظاهره الخير لا يجوز، وأنه لا حرج في الظن القبيح بمن ظاهره القبح" [٥٠ ، جـ ١٦ ، ص ٣٣٢] .

ولا يطبق على مثل هذه الحالة عموم الأدلة التي تحث على حسن الظن كما في الحديث أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يطوف بالكعبة ويقول: "ما أطيبك وأطيب ريحك ما أعظمك وأعظم حرمتك والذي نفس محمد بيده لحرمة المؤمن أعظم عند الله حرمة منك. ماله ودمه، وأن نظن به إلا خيرًا"(أخرجه ابن ماجه: كتاب الفتن ؛ باب حرمة المؤمن وماله ح ٣٩٣٢) [٥٣ ، جـ٢ ، ص ١٢٩٧][(١)]

---

(١) قال صاحب الزوائد: في إسناده مقال ونصر بن محمد شيخ ابن ماجه ضعفه أبو حاتم، وذكره ابن ماجه في الثقات، وأخرجه ابن أبي شيبه بلفظ (وأن يظن به ظن السوء) [٥٣ ، جـ٢ ، ص ١٢٩٧] ، وقال عنه ابن حجر في تخريج الكشاف، أخرجه ابن ماجه من حديث ابن عمر بإسناد فيه لين [١٥ ، جـ٤ ، ص ٣٧٢].

لأن إحسان الظن في مثل هذه الأحوال غير محمود لأنه قد يوقع فيما لا يحد ضره من اغترار في محل الحذر، ومن اقتداء بمن ليس أهلاً للتأسي [٣٦، جـ٢٦، ص ٢٥٢]. فيكون حسن الظن في مثل هذا الحال سببًا من أسباب فشو المنكرات وشيوعها وتعطل إنكار المنكر لأن إحسان الظن بمن يظهر فساده بحيث لا ينكر عليه ويحمي عرضه مدعاة إلى أن يظن به الناس أنه على صواب فيؤدي إلى تصحيح مذهبه وعمله ومن ثم شيوع منكره دون أن ينكر وهذا الأمر ينطبق حتى على المذاهب الفكرية.

ويرد على ذلك من الشواهد – أعني إحسان الظن في غير موضعه – ما ورد في قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ [سورة الجن: ٥]، قال أبو حيان في تفسيرها: "أي كنا حسنًا الظن بالإنس والجن واعتقدنا أن أحدًا لا يجترئ على أن يكذب على الله فينسب إليه الصاحبة والولد فاعتقدنا صحة ما أغوانا به إبليس ومردته حتى سمعنا القرآن فتبينا كذبهم" [١٦ ، جـ٨ ، ص ٣٤٨].

٢ - ظن الخير بمن عرف بالصلاح حماية لعرضه. لأن الدلائل هنا قويت والأمارات دلت على الصلاح ومن هذا ما كان من أبي أيوب الأنصاري عندما كذّب خبر الإفك لما شاع وأحسن الظن بأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها كما في قوله تعالى: ﴿ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴾ [النور ١٢][٥٢ ، جـ٦ ، ص ٢٦].

وهذه الحالة – أي إحسان الظن بمن عرف الصلاح – تختلف عن عموم إحسان الظن بالمسلم عامة كما سيأتي بيانه – إن شاء الله.

الحـالـة الثـانيـة

وهي ما يقع في النفس من غير دلالة فلا يكون ذلك أولى من ضده، ففي مثل هذه الحالة ينبغي أن يكون إحسان الظن بالمسلم لأن الأصل براءة حاله وعرضه من كل قبيح

مالم يدل عليه دليل وقد ورد في الحديث "إن الله تعالى حرم من المسلم دمه وعرضه وأن يظن به ظن السوء"، لكن أكثر ما يرد على القلب من هذا القبيل هو الظن السيء لأن غالب تلك الخواطر التي ترد على النفس بدون أمارة قوية هي من إلقاء الشيطان والدافع منها شرور النفس وعليه كان ترتيب الإثم على الظن في الآية لأن فيه مظنة الظلم والتعرض لحرمات المسلمين، فإذا ورد الظن على النفس مع تخلف الدلالات فينبغي دفعه، وتقديم حسن الظن، لأنه الأصل في التعامل مع المسلمين كما أشرنا، وفي هذا يقول سعيد بن المسيب: "كتب إلي بعض إخواني من أصحاب رسول الله أن ضع أمر أخيك على أحسنه مالم يأتك ما يغلبك، ولا تظن بكلمة خرجت من امرئ مسلم شرًا وأنت تجد له في الخير محملاً ....." (أخرجه البيهقي في شعب الإيمان) [٩ ، جـ ٦ ، ص ٣٢٣] وقال محمد بن سيرين "إذا بلغك عن أخيك شيء فالتمس له عذرًا فإن لم تجد له عذرًا فقل له عذر"— يعني عذر لا أعرفه، (أخرجه البيهقي أيضًا) [٩ ، جـ٦ ، ص ٣٢٣].

ونظرًا لتقارب الحالتين واختلاطهما في كثير من المجالات خصوصًا أن الحكم على الأمارة والدليل بأنه دليل قد يلتبس ويكون قابلاً أن يبني عليه الضدان — أي الخير والشر — فإن احتمال الخطأ في الحكم بالظن وارد، بل كثير، ولذلك كانت بلاغة القرآن في أسلوب النهي عن الظن عندما قال قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ حيث أمر باجتناب الكثير وليس الكل ورتب الإثم على البعض لا الكل ليدع مجالاً لأحقية الظن عندما يعتمد على الإمارة القوية لكن لما كان مجال ودائرة الظن بقسميها مزلة أقدام ومظنة آثام أمرنا إجمالاً باجتنابه، وفي هذا يقول الرازي: "في قوله (اجتنبوا كثير) (إن بعض الظن) إشارة إلى الأخذ بالأحوط كما أن الطريق المخوفة لا يتفق كل مرة فيه قاطع طريق، لكنك لا تسلك لاتفاق ذلك فيه مرة

ومرتين، إلا إذا تعين فتسJJلكه مع رفقه، كذلك الظن ينبغي بعد اجتهاد تام ووثوق بالغ" [٢٢ ، جـ ٢٨ ، ص ١٣٤].

ولما كان الظن من صفات الإنسان وهو داء يحرص الشيطان على نشره بين المسلمين خصوصًا لإنزال الفرقة بينهم كما في الحديث "ثلاث لازمات لأمتي: الطيرة والحسد وسوء الظن" (أخرجه الطبراني في الكبير ح ٣٢٢٧) [٣٤ ، جـ ٣ ، ص ٢٢٨] فإن الحاجة قائمة لتحليله لمعرفة مراحل نشأته في النفس ومتى يترتب الإثم عليه وهو موضوع المبحث التالي.

المبحث الرابع:
مراحل نشأة الظن في النفس

يمر الظن إلى حين خروجــه إلى حيز القول أو العمل بعدة مراحــل - إن صحت التسمية - ولا نقصد بالمراحل هنا التمايز الزمني أو الفكري بين كل مرحلة إذ أن ذلك قد يتم في لحظة واحدة، ولكن عند إرادة تحليل موقف أو مشكلة من المشكلات لابد من تأمله من كل جوانبه حتى يمكن الوقوف على أنجح الوسائل في التعامل معه حسب نوعيته.

ومعلوم أن الناس يتفاوتون في هذا الباب - أعني كثرة الظن -حتى وجدنا في كتب اللغة عند بيان معنى مادة ظن " الظنون " ومن معانيها السيئ الظن بكل أحد [جـ٨ ، ص ١٥٢] . فنذكر أولاً كيف ينشأ الظن ابتداءً ثم نذكر أسباب كثرة الظنون وقلتها.

أولاً : مرحلة الخواطر

يبدأ نشوء الظن عند الإنسان على شكل خاطرة تمر في ذهن المرء، وسببها غالبًا عند حصول أمارة في الخارج وسبق أن ذكرنا قول الراغب في الظن عندما قال عنه "اسم لما يحصل عن أمارة".

وفي هذه المرحلة نستطيع القول بأن الناس يشتركون في ذلك لأنها تحصل اضطرارًا بأن ترد على القلب دون اختيار، وإنما الاختيار يكون فيما بعد الخواطر. قال الخطابي ".. إن أوائل الظنون إنما هي خواطر لا يملك دفعها والأمر والنهي إنما يردان بتكليف الشيء المقدور عليه دون غيره مما لا يُملك ولا يستطاع" [جـ٣، ص ٢١٨٩]، ولا يلزم من ذلك قوة الأمارة أو ضعفها فإن الخواطر قد ترد إلى القلب بسبب أوهن الأمارات من حركة أو كلمة أو نظرة أو غيرها. قال الغزالي: (والشيطان قد يقرر على القلب بأدنى مخيلة مساءة الناس، ويلقي إليه أن هذا من فطنتك وسرعة فهمك وذكائك وأن المؤمن ينظر بنور الله تعالى، وهو على التحقيق ناظر بغرور الشيطان وظلمته" [٤١، جـ٣، ص ١٥١].

لذا فإن على المسلم مراقبة نفسه ومحاسبتها من مراحل الظن الأولى حتى لا يصل إلى المحظور فإن كان الظن الحسن فهو لا شك أنه مطلوب بل هو من دعائم توطيد عرى الأخوة بين المسلمين وسيأتي تفصيل الحديث عنه لاحقًا، أما إن كان الظن سيئًا فهو من باب الوسوسة التي لا يمكن التحرز منها لكن يمكن التغلب على آثارها وإيقاف تطورها إلى المراحل اللاحقة بأمرين:

١ - الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم ومن شرور النفس فإنها إن لم تكافح بالاستعاذة انتقل الإنسان للمراحل التالية التي يكون معها تحقيق الظن والعمل به.

وفي الحديث: "إن الله تجاوز لأمتي عما وسوست - أو حدثت - به نفسها مالم تعمل أو تكلم" (الحديث أخرجه البخاري: كتاب العتق، باب الخطأ والنسيان في العتاقة والطلاق ونحوه) [١٤، جـ٥، ص ١٦٠] قال ابن حجر: الوسوسة تردد الشيء في النفس من غير أن يطمئن إليه ويستقر عنده، ولهذا فرق العلماء بين الهم والعزم" [١٤، جـ ٥، ص ١٦٠] وقال الكرماني عن سبب إيراد البخاري لهذا الحديث في باب الخطأ

والنسيان: "قاس الخطأ والنسيان على الوسوسة فكما أنها لا اعتبار لها عند عدم التوطن فكذا الناسي والمخطئ لا توطين لهما..." [١٤ ، جـ١١ ، ص ٥٤٩].

ومجمل القول فإن التعامل مع الظن السيء في هذه المرحلة كالتعامل مع سائر وساوس الشيطان الذي أُمرنا بالاستعاذة منها: ﴿ قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلۡوَسۡوَاسِ ٱلۡخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسۡوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ ﴾ [الناس: ١٥].

قال الغزالي: "... ومالم تشاهده بعينك ولم تسمعه بأذنك ثم وقع في قلبك فإنما الشيطان يلقيه إليك فينبغي أن تكذبه. فإنه أفسق الفساق وقد قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ ۝٦ ﴾ [الحجرات: ٦] فلا يجوزتصديق إبليس، وإن كان ثمّ مخيلة تدل على فساد واحتمل خلافه لم يجز أن تصدق به ... فإذا لم يكن كذلك وخطر لك وسواس سوء الظن فينبغي أن تدفعه عن نفسك وتقرر عليها أن حاله عندك مستور كما كان وأن ما رأيته منه يحتمل الخير والشر" [٤١ ، جـ٣ ، ص ١٥٠ – ١٥١].

٢ - تذكُّر محاسن الإنسان المظنون فيه بما يعادل الأمر الذي وقع فيه الظن ليحصل بعد ذلك دحض هذا الظن وهي وسيلة مهمة من وسائل التغلب على الشيطان عندما يريد تحقيق الظن في النفس. وإن زاد على ذلك بالدعاء للمظنون فيه فهو أولى وأفضل، قال الغزالي "لأن ذلك يغيظ الشيطان ويدفعه عنك فلا يلقي إليك الخاطر السوء خيفة من اشتغالك بالدعاء والمراعاة" [٤١ ، جـ ٣ ، ص ١٥٠ – ١٥٠].

المرحلة الثانية : عقد الظن وتوطينه

والواقع أن هذه المرحلة مقدمة للمرحلة اللاحقة إذ الظن برسوخه في هذه المرحلة ينتقل إلى حيز العمل، وهو امتداد للمرحلة السابقة فحصوله كان بسبب أن الظان لم يعاجله بالعلاج الشرعي وهو طرد الخواطر والوسوسة.

وحقيقة هذه المرحلة أن الظن الباطل إذا تكررت ملاحظته ومعاودة جولانه في النفس قد يصير علمًا راسخًا في النفس فتترتب عليه الآثار بسهولة [٣٦، جـ٢٦ ، ص ٢٥٢] ، بمعنى أن النفس ترغب في تصديق هذا الظن الذي ابتدأ بخاطرة فلم تجتهد في دفعه وإنما سكنت إليه وأخذت في داخلها بجمع الأدلة على صحته لتصل دون أن تشعر إلى يقين وبالتالي يسوغ لديها العمل بمقتضى الظن لأنه عندها تعدى مرحلة الظن إلى التصديق واليقين.

وكل هذا لم نصل بعد إلى مرحلة القول كالغيبة، والعمل كالتجسس، فإن قيل ما الفارق بين هذه المرحلة والتي قبلها طالما أن العمل لم يحدث بعد؟. قلنا إن هذه المرحلة إذا حدثت قلما ينجو الإنسان من العمل بمقتضاها فهي مقدمة لمرحلة العمل وهذه تحدث عندما يتهاون الإنسان بالعلاج الشرعي للمرحلة السابقة، أما المرحلة السابقة فيشترك فيها – في الغالب – بنو آدم يلقيها الشيطان إلقاءً كما سبق أن بينا.

فإن قيل فبماذا يعرف عقد الظن، من مجرد الشكوك والخواطر التي تختلج في النفس؟ فتقول: عقد سوء الظن: أن يتغير معه القلب عما كان فينفر عن المظنون به، ويستثقل مراعاته وتفقد إكرامه والاغتمام بسببه [٤١ ، جـ٣، ص ١٥١].

وقد فرق بعض العلماء بين درجات عمل القلب عند شرحهم لحديث "إن الله تجاوز لأمتي بما وسوست به أنفسها مالم تعمل به أو تكلم" ففرق بعضهم بين الهم والعزم.

قال الكرماني: "فيه أن الوجود الذهني لا أثر له وإنما الاعتبار بالوجود القولي في القوليات والعملي في العمليات، وقد احتج به من لا يرى المؤاخذة بما وقع في النفس ولو عزم عليه، وانفصل من قال: يؤاخذ بالعزم بأنه نوع من العمل يعني عمل القلب" [١٤ ، جـ ١١ ، ص ٥٤٩].

والذي يظهر – والله أعلم – ترتب الإثم على الظن في هذه المرحلة وإن لم يحدث عمل الجوارح لعموم الآية الواردة في ذلك: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ﴾ [الحجرات: ١٢].

فقد حوت هذه الآية جملة من الآداب التي يكون بها صيانة عرض المسلم فذكر بعد الظن التجسس، والغيبة وهما صورتان للعمل بالظن: التجسس للعمل، والغيبة للقول، فدل على أن الظن مقصود به مرحلة ما قبل عمل الجوارح وما بعد مرحلة الخواطر التي لا يكلف بها الإنسان وهي مرحلة عقد الظن وتوطينه في النفس.

قال القرطبي في تفسير الآية: "الظن هنا في الآية هو التهمة، ومحل التحذير والنهي إنما هو تهمة لا سبب لها يوجبها كمن يتهم بالفاحشة وشرب الخمر مثلاً ولم يظهر عليه ما يقتضي ذلك: ودليل كون الظن هنا بمعنى التهمة (ولا تجسسوا). ذلك أن يقع له خاطر التهمة ابتداءً ويريد أن يتجسس خبر ذلك ويبحث عنه ويتبصر ويستمع لتحقيق ما وقع له من تلك التهمة فنهى عن ذلك ..." [٥٠ ، جـ ١٦ ، ص ٣٣١].

وقد جاء النهي عن التجسس بعد النهي عن الظن في الحديث أيضًا فقد قال صلى الله عليه وسلم "إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ولا تحسسوا[١] ولا تجسسوا ولا

(١) الفرق بين التحسس بالمهملة والتجسس أن الحس أخص من الجس لأن الحس تعني ما يدركه الحس والجس تعرف حال مّا من ذلك [٢٣ ، ص ٩٣ ؛ ١٤ ، جـ ١٠ ، ص ٤٨٢].

تناجشوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانًا"(الحديث أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرًا من الظن [١٤ ، جـ ١٠ ، ص ٤٨٤] ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب ، باب تحريم الظن [٥٩ ، جـ ١٦ ، ص ١١٩].

وإنما صار أكذب مع أن الكذب لا يستند إلى ظن أصلاً فهو أشد في حقيقة الأمر من الذي يستند على الظن: لأن الكذب في أصله مستقبح مستغنى عن ذمه بخلاف هذا فإن صاحبه بزعمه مستند إلى شيء فوصف بكونه أشد الكذب مبالغة في ذمه والتنفير منه، وإشارة إلى أن الاغترار به أكثر من الكذب المحض لخفائه غالبًا ووضوح الكذب المحض [١٤ ، جـ ١٠ ، ص ٤٨٢].

وقد وصفت هذه المرحلة - وهي عقد الظن وتوطينه في السنة بالتحقيق فقد جاء في الحديث "ثلاث لازمات لأمتي: الطيرة والحسد وسوء الظن، فقال له رجل وما يذهبهن يا رسول الله ممن هن فيه؟ قال صلى الله عليه وسلم: "إذا حسدت فاستغفر، وإذا ظننت فلا تحقق، وإذا تطيرت فامضِ" (أخرجه الطبراني في الكبير ح ٣٢٢٧) [٣٤ ، جـ٣، ص ٢٢٨] والتحقيق: جعل الشيء حقيقة أي صدقًا ولا يكون ذلك إلا بعقد قلبه عليه وتصديقه حتى يصير حقيقة في قلبه عندها يبدأ العمل بها، فنهينا عن هذه المرحلة أصلاً لقطع الطريق على العمل بالظن.

على أن من المفسرين من رأى ترتب الإثم على العمل بالظن وليس بعقده في النفس وذلك مثل ابن عطية[٣٩ ، جـ ١٥ ، ص ١٤٧] والبغوي [٨ ، جـ ٤ ، ص ٢١٥] وأبي حيان [١٦ ، جـ ٨ ، ص ١١٤] وغيرهم وحكى ابن الجوزي القولين فقال: قال المفسرون: هو ما تكلم به مما ظنه من السوء بأخيه المسلم، فإن لم يتكلم به فلا بأس، وذهب بعضهم أنه يأثم بهذا الظن وإن لم ينطق به" [١١ ، جـ ٧ ، ص ٤٦٩] وكذلك قال

الألوسي بعد ذكر ترتب الإثم بالعمل بالظن "وقيل المنهي عنه : الاسترسال معه وترك إزالته بنحو تأويل سببه من خبر ونحوه" [١ ، جـ ٢٦ ، ص ١٥٦].

وقد سمى الغزالي الظن في هذه المرحلة بغيبة القلب فقال "اعلم أن سوء الظن حرام مثل سوء القول فكما يحرم عليك أن تحدث غيرك بلسانك بمساوي الغير فليس لك أن تحدث نفسك وتسيء الظن بأخيك، ولست أعني به إلا عقد القلب وحكمه على غيره بالسوء [٤١ ، جـ ٣ ، ص ١٥٠].

المرحلة الثالثة : العمل بالظـــن

وذلك أن النفس عندما يخطر لها خاطر السوء فإن لم تدفعه وجال في النفس وتردد حتى صدقه وعقد القلب عليه فإن النفس لا تكتفي عند حد معين فلا يكفيها أن أساءت الظن وصدقت في أخيها المسلم شرًا بل يتعدى الأمر إلى طلب الدليل لئلا يقف عند اسم الظن فيلام عليه.

قال الرازي : "لما ذكر الظن فهم منه أن المعتبر اليقين، فيقول القائل أنا أكشف فلانًا يعني أعلمه يقينًا وأطلع على عيبه مشاهدة فأعيب فأكون قد اجتنبت الظن فقال تعالى ولا تتبعوا الظن ولا تجتهدوا في طلب اليقين في معايب الناس" [٢٢ ، جـ ٢٨ ، ص ١٣٤] ، وقال السعدي : "فإن بقاء ظن السوء بالقلب لا يقتصر صاحبه على مجرد ذلك بل لا يزال به حتى يقول مالا ينبغي ويفعل مالا ينبغي" [٣٠ ، ص ٧٤٥].

وقد ذكرت الآية كما أسلفنا صورتين للعمل بالظن :

الأولى : التجسس وهو تتبع عورات المسلمين وهذا غالبًا لا يكون ابتداءً بل يكون بعد وقوع ظن السوء في النفس وتحققه ولهذا اقترن ذكر التجسس في الآية والحديث بالظن.

الثانية : الغيبة وقد صورت في الآية بأبشع الصور المستكرهة طبعًا لدى النفس الإنسانية وهو أكل لحم الأخ المسلم ميتًا، والغيبة أعم من ظن السوء فإن اغتياب المسلم قد يكون بشيء متحقق الوقوع وقد يكون بالشيء المظنون والنهي واقع على الحالتين، ولكن لما اشترك مع سوء الظن في أحد صوره ناسب جمع النهي عنهما في آية واحدة.

والعمل بالظن يطول الحديث فيه ولكنه ليس مجال هذا البحث فنقتصر على ما ذكرنا.

المبحث الخامس:

أسباب الظن وآثاره

المتأمل في حقيقة الظن ومراحل نشوئه يجد أنه محصلة عملية فكرية قائمة على مثير خارجي، فالمثير الخارجي هو الموقف أو الدليل أو الأمارة التي نشأ عنها الظن ابتداءً، وعندما يستقبله العقل والقلب يُخضعه لعمليات فكرية متتالية يحركها أمور كثيرة بالغة التعقيد من معلومات سابقة، إلى صفات يتصف بها هذا الإنسان إلى مكنونات في القلب، إلى ما يتصف به من زيادة إيمان ونقصان، فيمر بعدد من العمليات الخاطفة ينتج منها الظن في شكله النهائي فإما إحسان ظن أو سوء ظن.

وترجع نشأة الظن من حيث نوعه من حسن أو سوء إلى مكنونات النفس المسبقة وتتعلق بشكل كبير بالقلب من حيث صحته ومرضه فحسن الظن ناشيء عن سلامة الصدر وفي المقابل فإن سوء الظن ناشيء عن بعض أمراض النفوس مثل الحقد والحسد والغيرة وعليه نفرد الحديث عن كل من الحالتين.

أولاً : حسن الظن

(أ) أسبابه

حسن الظن ناشئ عن سلامة الصدر ودليل على صحة القلب وخلو النفس من الأمراض والشرور، وسلامة الصدر منزلة عظيمة لا يلقاها إلا القليل ولذا فهي من

صفات أهل الجنة، كما في قوله تعالى: ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الحجر :٤٧]، وقد امتدح الله الأنصار لما أحسنوا وفادة المهاجرين وذكر من دعائهم: سلامة قلوبهم من الغل، لما له من دور في إشاعة روح الأخوة والمحبة كما في قوله: ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُو مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾ [الحشر: ١٠]. وعن عبدالله بن عمرو: "قيل يا رسول الله أي الناس أفضل؟ قال كل مخموم القلب صدوق اللسان، قيل: صدوق اللسان، نعرفه فما مخموم القلب؟ قال: هو التقي النقي لا إثم فيه ولا بغي ولا غل ولا حسد"(أخرجه ابن ماجه: كتاب الزهد، باب الورع ح ٤٢١٦)[1] [٥٣ ، جـ ٢ ، ص ١٤٠٩].

والشيطان تغيظه تلك الأخوة فيسعى لإيقاد نار الحسد والغل والحقد بين القلوب.

ومن آثار سلامة الصدرأن يتمنى المسلم الخير للناس إن عجز عن سوقه إليهم بيده، ومن فضل الله على عباده أنه استحب ستر عيوب الخلق ولو صدق اتصافهم بها. وما يجوز لمسلم أن يتشفى بالتشنيع على مسلم ولو ذكره بما فيه، فصاحب الصدر السليم يأسى لآلام العباد ويتمنى لهم العافية [٤٢ ، ص ٩٢ - ٩٣]، ومن باب أولى لا يسيء الظن بهم ويحملهم على الخير ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

وإذا تحدث الناس بأخيه المسلم سوءًا فإنه يظن به خيرًا وبالتالي يذب عن عرضه بناءً على حسن ظنه، ولذلك حض الله المؤمنين على هذه الخصلة، أعني حسن الظن - عند سماع ما يسوء أخاك المسلم، في ثنايا توبيخ الخائضين بالإفك في حق أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، فقال تعالى: ﴿ لَّوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ

---

(١) قال صاحب الزوائد: هذا إسناد صحيح رجاله ثقات [٥٣ ، جـ ٢ ، ١٤٠٩].

بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ ﴾ [النور: ١٢]. والمتأمل في سياق الآية يجد التأكيد على حسن الظن وأثره في حماية الأعراض بعدة أساليب:

١ - أداة التخصيص: (لولا) قال الرازي في تفسيرها: "تحريض على فعل الخير وزجر وأدب [٢٢ ، جـ ٢٣ ، ص ١٧٧ ؛ ١٦ ، جـ ٦ ، ص ٤٣٧].

٢ - العدول من الخطاب إلى الغيبة، ومن الضمير إلى الظاهر في قوله (ظن المؤمنون) فلم يأت التركيب: ظننتم بأنفسكم، أو قلتم، ليبالغ في التوبيخ بطريقة الالتفاف، وليصرح بلفظ الإيمان دلالة على أن الاشتراك فيه مقتض أن لا يصدق مؤمن على أخيه قول عائب ولا طاعن [١٦ ، جـ ٦ ، ص ٤٣٧].

٣ - التعبير بقوله (بأنفسهم) فعبر عن الأخ المسلم بالنفس قال البغوي: "أي بإخوانهم" قال الحسن: بأهل دينهم لأن المؤمنين كنفس واحدة، نظيره قوله (وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ) [النساء: ٢٩] (فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ) [(النور: ٦١] [٨ ، جـ ٣ ، ص ٣٣٢].

وعليه فإن حق الأخوة يقتضي أن يقيس المسلم ما سمع في أخيه المسلم على نفسه فإن كان لا يليق به ولا يفعله فأخوه المسلم كذلك وفي الآية كان المقصود: عائشة رضي الله عنها فإذا كان لا يليق بهم فأم المؤمنين أولى بالبراءة بطريق الأولى والأحرى.

فإجمالاً التعبير (بأنفسهم) تنبيه على أهمية حسن الظن بذكر أحد وسائل تحقيقه في النفس بقياس الأخ على النفس فكما يكره أن يذكر بسوء أو يتهم بباطل فينبغي أن يفعل كذلك مع أخيه المسلم.

٤ - الإتيان بقول (وقالوا هذا إفك مبين) فهذه العبارة فيها انتقال من عمل القلب إلى عمل الجوارح فينبغي أن يظن بأخيه المسلم خيرًا ولا يصدق فيه شرًا بدون دليل فهذا عمل القلب، ثم ينتقل إلى عمل الجوارح بالقول بأن يعلنها صريحة بلسانه أن هذا القول إفك وكذب قال ابن كثير: "... هذا ما يتعلق بالباطن. و (قالوا) أي بألسنتهم" [٥٢ ، جـ٦ ،

ص٢٦]. وقال أبو حيان: "... تنبيه على أن هذا المؤمن إذا سمع قالة في أخيه أن يبني الأمر على ظن الخير وأن يقول بناء على ظنه: هذا إفك مبين هكذا باللفظ الصريح ببراءة أخيه كما يقول المستيقن المطلع على حقيقة الحال، وهذا من الأدب الحسن" [١٦، جـ٦، ص ٤٣٧].

والآية وما تلاها بالرغم أنها نزلت في حادثة خاصة وهي قصة الإفك إلا أن ما ورد فيها من آداب وزواجر ينبغي أن يمتثلها الإنسان في خلقه وتعامله دائمًا فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب وقد قال تعالى في ثناياها: (لا تحسبوه شرًا لكم بل هو خير لكم). قال السعدي: "... ولما تضمن من بيان الآيات المضطر إليها العباد التي ما زال العمل بها إلى يوم القيامة فكل هذا خير عظيم، لولا مقالة أهل الإفك لم يحصل ذلك. وإذا أراد الله أمرًا جعل له سببًا، ولذلك جعل الخطاب عامًا مع المؤمنين كلهم وأخبر أن قدح بعضهم ببعض كقدح أنفسهم..." [٣٠، ص٥١١].

من خلال ما سبق يتبين بأن سلامة الصدر منزلة عظيمة وهي مؤشر لسلامة صاحبها من الكثير من أمراض النفوس التي هي تشعل فتيل الفرقة بين صفوف المسلمين كالحقد والحسد والغل والبغضاء وسوء الظن، فإذا سلم من ذلك فإنه يتقلد منزلة عظيمة ويحظى بالأجر العظيم عند الله.

وإذا علم ذلك فينبغي على كل مسلم جهاد النفس كلما ظهر منها ما يخدش سلامة الصدر وأكبر دواء لذلك هو حسن الظن بالمسلمين مالم تكن هناك إمارة بينة نقيض ذلك. فإن النفس إذا اعتادت كبح جماحها في هذا الباب رضخت ثم ألفت فصار لها ديدنًا ومن ثم يسلم الصدر من كل دواعي الفرقة بين المسلمين.

ومما يجدر التنبيه له أن حسن الظن لا يدخل إطلاقًا تحت عموم الظن الوارد النهي عنه في قوله (اجتنبوا كثيرًا من الظن)، بل المقصود في الأية الظن السيء بقسميه أي استند على إمارة قوية أو إمارة ضعيفة.

(ب) آثار حسن الظن

لحسن الظن أثر عظيم سواء على صاحبه أو على المجتمع، فأما أثره على صاحبه فلا شك أن من كان ديدنه حسن الظن – مالم تظهر أدلة تدل على خلافه – فإن صاحبه يعيش قرير العين مرتاح البال وفي هذا يقول أكثم بن صيفي (من جعل لنفسه من حسن الظن بإخوانه نصيبًا أراح قلبه) [٥٨، جـ٢، ص ٣١٩؛ ٣٣ ص٢٥٥].

وبالتالي فإن من يحسن الظن بالناس يعد ذو صحة نفسية عالية، وهذا مطلب نفسي ضروري لمسيرة دفة الحياة ولأهميته نشأت حديثًا علوم بكاملها تعنى بالصحة النفسية لها أسسها ونظرياتها عند الغرب، وألفت مؤلفات في ذلك لاقت رواجًا عظيمًا نظرًا لشدة الحاجة لها، بينما هي عند المسلمين مؤصلة في كثير من الآداب في الكتاب والسنة والتي من أهمها الحرص على سلامة الصدر وحسن الظن بالآخرين حتى تسلم العلاقات ويهنأ العيش مع الآخرين.

هذا بالإضافة إلى المنزلة العظيمة له في الآخرة فهو سبب من أسباب دخول الجنة كما سبق ذكره.

أما أثره على المجتمع فإنه عامل مهم في نشر روح المحبة والتآخي بين المسلمين، ذلك أن من اتصف بسلامة الصدر وأحسن الظن بالآخرين كان صاحبه دائم المودة لإخوانه محافظ على عقد الأخوة بينهم وإذا بقي عقد الأخوة تكافل المجتمع وتعاون أبناؤه كما في وصف الرسول لهم (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى

منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى) (أخرجه البخاري: كتاب الأدب ، باب رحمة الناس والبهائم) [١٤ ، جـ ١٠ ، ص ٤٣٨].

وموضوع حث الإسلام على التكافل والتعاون والنظر في حاجات الإخوان أمر استفاضت به النصوص في مناحٍ شتى في الحياة وقد جاء في الحديث غير ما تقدم من النصوص "أحب الناس إلى الله أنفعهم للناس وأحب الأعمال إلى الله عز وجل سرور يدخله على المسلم، أو يكشف عنه كربه أو يقضي عنه دينًا..." الحديث[1] (أخرجه ابن أبي الدنيا في قضاء الحوائج، والطبراني في الكبير [٣٤ ، جـ ٣ ، ص ٢٠٩].

ومن آثار حسن الظن بالإضافة إلى المودة والتكافل والتراحم أن من اتصف بحسن الظن يتصف معه بإقالة العثرات والتماس الأعذار للأخوة عندما يبدر منهم ما قد يخل بصفو الأخوة فيبني على غالب حسنات الشخص ويلتمس العذر في السيء القليل. ومن روائع كلام الشافعي في وصف الأخوة من هذا القبيل "من صدق في أخوة أخيه: قَبِل علله وسد خلله وعفا عن زلله" [٢٤ ، ص ١٧] ولاشك فإن الإنسان إذا اتصف بهذه الروح في التعامل فإنه لن يبق في قلبه غل على أحد، وبالتالي تبادر نفسه على تقديم واجبات الأخوة دون أن يعيقها ما تجده النفوس الظنونة عند هذه المواقف.

وفي ميزان تحقيق الأخوة أن يتمنى الإنسان لأخيه ما يتمنى لنفسه وفي المقابل يكره لأخيه ما يكره لنفسه، ولذلك يكثر التعبير في القرآن عن الأخ المسلم بالنفس كما في قوله: ﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ [النور: ١٢] وقال: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [الحجرات: ١١] للتذكير بهذه الحقيقة، وقد صرح بهذا المقياس في الحديث "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه – أو قال لجاره – ما يحب لنفسه" (أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب من خصال الإيمان أن تحب لأخيك ما تحب لنفسك) [٥٩ ، جـ ٢ ، ص ١٦].

---

(١) الحديث صححه الألباني في السلسلة رقم (٩٠٦) [٤ ، جـ٢ ، ص ٦٠٨].

كما ينبغي التنويه إلى بعض الآثار الواردة في النهي عن حسن الظن كما في الأثر (من حسن ظنه بالناس كثرت ندامته)[١] ومثل (احترسوا من الناس بسوء الظن)[٢] و (الحزم سوء الظن)[٣] فهذه أحاديث شديدة الضعف من حيث النقل وتخالف ظاهر نصوص القرآن وصحيح السنة إلا أن يكون حملها كما وجهها العجلوني [٣٨ ، جـ ١ ، ص ٥٥] على أهل التهمة ونحوهم أو كما وجهها ابن الجوزي [١١ ، جـ ٧ ، ص ٤٦٩] بأن يكون المراد: الاحتراس بحفظ المال مثل أن يقول: إن تركت بابي مفتوحًا خشيت السراق فيكون إحسان الظن بجميع الناس غير صحيح لاشتمالهم على من لا يستحق ذلك من المعتدين.

ثانيًا : ســـوء الظـــن

(أ) أسبابه

سبق أن ذكرنا أن الظن عملية فكرية تقوم بها النفس فليس الدليل أو الإمارة أو الموقف الذي قام به المظنون به إلا سبب أو موقف خارجي منفصل، أثار النفس عندما استقبلت الإمارة فخالط ما تحويه من مكنونات منوعة ففكرت وقدرت حتى أفرزت في النهاية سوء الظن، وعليه فإن النفوس تتفاوت في هذا الباب تفاوتًا كبيرًا فمنها مقل ومنها

---

(١) ذكره العجلوني في كشف الخفا [٣٨ ، جـ ١ ، ص ٥٥] ، وقال أخرجه تمام في فوائده وابن عساكر، وقال عنه الألباني في السلسلة باطل [٥ ، جـ ٣ ، ص ٢٩٣].

(٢) ذكره العجلوني في كشف الخفا [٣٨ ، جـ ١ ، ص ٥٥] ، وقال أخرجه الطبراني في الأوسط والعسكري في (الأمثال) مرفوعًا، وقال عنه الألباني في السلسلة [٤ ، جـ ١ ، ص ١٨٦] ضعيف جدًا، وروي هذا من قول مطرف بن الشخير كما أخرجه أحمد في الزهد [٢ ، ص ٢٩٧].

(٣) أخرجه الديلمي في الفردوس ح ٢٧٩٧ [٢١ ، جـ٢ ، ص ١٥٧] ، والقضاعي في مسند الشهاب [٤٩ ، جـ١ ، ص ٤٩ — ٤٩] وقال عنه الألباني في السلسلة ضعيف جدًا [٥ ، جـ٧، ص ٢٩١]، ويروى هذا في الأمثال التي تمثل بها أكثم بن صيفي حيث قال (الحزم سوء الظنة) [٣٣، ص ٢٦٠].

نفوس مريضة لا يكاد يمر عليها موقف إلا وقد نسج خيالها من الظنون السيئة قصصًا ومواقف ليس لها على أرض الواقع وجود.

وبالتالي فإن الحديث يرتبط تمام الارتباط بأمراض القلوب التي يتصف بها الظان مما تكون سببًا في تحويل الموقف إلى الظن السيء. فنعرض لبعض تلك الأمراض التي تتشكل وتتمحور حسب صفات كل إنسان، فقد تتداخل مع بعضها البعض، وقد يكون واحدًا منها السبب وقد تجتمع كلها لينشأ منها سوء الظن في النهاية.

١- **الأمراض الداخلية: كالحسد والحقد، والغل والبغضاء والغيرة، والأنانية:** فمن ابتلي بهذه الأمراض فإنه لا يهنأ أن يرى هبوط منزلته في قلوب الناس أو قلة حظه في أي نعمة - من جاه أو علم أو مال - أمام أحد أقرانه ويسري ذلك بين الأقران حتى بين طلبة العلم والمنتسبين للخير فإنه قد يصلهم هذا الداء ومن هنا يبدأ تتبع العثرات وتلمس الزلات والهفوات وتحميلها مالا تحتمل فهو متربص مترصد لكل ما حوله ليبني عليها الظنون السيئة ومن ثم يبدأ العمل من غيبة وتجسس وتجريح وتصنيف واتهامات، فسوء الظن بهذا لم يكن ابتداء وإنما كان بسبب مرض تلك النفوس فالمرض حملها على سوء الظن فانتجت العمل الذي كان به الفرقة ولذلك حذر الرسول صلى الله عليه وسلم من الحسد والبغضاء وسماه بوصف دقيق يجسد خطره فقال "دب إليكم داء الأمم قبلكم: الحسد والبغضاء، البغضاء هي الحالقة، لا أقول تحلق الشعرولكن تحلق الدين والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، ألا أنبئكم بما يثبت ذلك لكم أفشوا السلام بينكم"[1] (أخرجه الترمذي: كتاب صفة القيامة ح ٢٥١٠، والإمام أحمد [٣، جـ ١، ص ١٦٥] وسبق ذكر حديث النهي عن الظن والذي عطف عليه

---

(١) الحديث قال عنه الألباني ضعيف [٧، جـ ٣، ص ١٤٨] ومعناه صحيح كما في الحديث التالي له.

النهي عن تلك الأمور، فقال صلى الله عليه وسلم "إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ولا تحسسوا ولا تجسسوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانًا".

فقوله (وكونوا عباد الله إخوانًا) كما ذكر ابن حجر (تشبه التعليل لما تقدم كأنه قال إذا تركتم هذه المنهيات كنتم إخوانا ومفهومه إذا لم تتركوها تصيروا أعداء) [١٤ ، جـ ١٠ ، ص ٤٨٣].

قال ابن عبد البر في شرح الحديث "تضمن الحديث تحريم بغض المسلم، والإعراض عنه، وقطيعته بعد صحبته بغير ذنب شرعي، والحسد له على ما أنعم به عليه، وأن يعامله معاملة الأخ النسيب، وأن لا ينقب عن معايبه، ولا فرق في ذلك بين الحاضر والغائب، وقد يشترك الميت مع الحي في كثير من ذلك" [١٤ ، جـ ١٠ ، ص ٤٨٣].

وخلاصة القول أن تلك المنهيات سبب لاستعداد النفس لسوء الظن وتناميه إلى حيز العمل، فإذا نهي عنه وجاهد المسلم نفسه للتخلص من تلك الأمراض تحقق تلقائيًا ترك سوء الظن والعكس صحيح.

٢- اتباع الهوى : فإنه كلما كان الإنسان أشد طوعًا للهوى كان أكثرهم إغراقًا في سوء الظن والعمل به دون امتثال لشرع، أو أخذ بنصح، أو مراعاة لعرض. والهوى هو أول فتنة طرقت العالم، وباتباع الهوى ضل إبليس، وبه ضل كثير من الأمم عن اتباع رسلهم وأنبيائهم، ولهذا حكم الله أنه لا أحد أضل ممن اتبع هواه فقال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ [القصص: ٥٠] وقال: ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴾ [ص: ٢٦]، [٢٨، ص ٣٧ -٣٨].

وهـذا السبب لا ينفصـل كثيرًا عـن السـابق لأنـه يـتداخل معه فإذا اجتمع للحسود مثلاً اتباع الهوى حصـل العمـل بـالظن مباشـرة حيث أن اتباع الهوى هو الوسيلة العملية لخروج الظن إلى حيز العمل.

٣- سوء الفعل: من أسباب سوء الظن ما يتصف به الإنسان من خصال سيئة كالغدر، والكذب، والخيانة، والغش ونحوها، فإن تلك الصفات السيئة إذا تمكنت في الإنسان فإن صاحبها ينظر للآخرين بهذا المنظار فيحكم عليهم بذلك وإن لم يكونوا كذلك وعليه فإن سبب سوء الظن هنا يرجع إلى سوء الفعل وسوء الخصال فالكذاب مثلاً يحمل حديث الآخرين على الكذب ولو صدقوا، والغشاش يتهم الآخرين بالغش وكذلك الخائن وغيره، وقد جسد المتنبي (ت ٣٥٤هـ) هذا المعنى في شعره [٥٦، جـ ٤، ص ٣٥] فقال:

إذا ساء فعلُ المرء ساءت ظنونه وصدّق ما يعتاده من توهُّمِ

وفي المثل: (كل إناء بما فيه ينضح)[١]

٤- النفاق

يعد سوء الظن من أبرز سمات المنافقين المذكورة في القرآن سواء كان سوء الظن في حق الله تعالى فيدخل في الاعتقاد كما في قوله تعالى: ﴿يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية﴾ [آل عمران: ٧٤] وقوله: ﴿ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ﴾ [الفتح: ٦].

---

(١) ويروى (كل إناء يرشح بما فيه) وفي معناه أيضًا قولهم (الكلام صفة المتكلم) ورفع هذه الأقوال للرسول لا أصل له [٤٦، ص ٢٦٣].

أو ظنهم بالرسول والمؤمنين وهو ما يعنينا في هذا الموضوع. ويرجع سوء ظن المنافقين بالرسول والمؤمنين إلى مكنونات نفوسهم التي انطوت على الكفر وسوء الظن بالله ومن ثم كره الرسول، ومحبتهم وقوعه في السوء، لذا فإنهم كلما حصلت أمور مظنة هزيمة الرسول أو وقوع السوء به وأصحابه مثل ما يحدث في المعارك فإن سوء الظن يتبادر إلى قلوبهم ويحبونه بل ويتمنونه وأحيانًا يحصل التكلم به فيما بينهم حتى إذا علمه الرسول صلى الله عليه وسلم عن طريق الوحي سارعوا لإنكاره أو الاعتذار عنه.

ونذكر لذلك بعض الأمثلة:

(١) قال تعالى: ﴿ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ ﴾ [الفتح: ١٢]، قال ابن إسحاق "لما أراد العمرة استنفر من حول المدينة من أهل البوادي والأعراب ليخرجوا معه خوفًا من قومه أن يعرضوا له بحرب أو يصدوه عن البيت فتثاقل عنه كثير منهم فهم الذين عنى الله بقوله (سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلتنا أموالنا وأهلونا...) [٦٠ ، جـ ٣ ، ص ٣٥٥ ، ٣٦٩ ؛ ١١ ، جـ٧ ، ص ٤٢٩] فكان من المنافقين توقع استئصال العدو للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه فلا يرجعون إلى المدينة بسبب ذلك.

وهذا الظن كان قويًا في نفوسهم ولذا جيء بحرف (لن) المفيد استمرار النفي وأكد بقوله (أبدًا) [٣٦ ، جـ ٢٦ ، ص ١٦٤].

والدليل على محبتهم وقوع ما ظنوه قوله (وزين ذلك في قلوبكم) قال الآلوسي "وزين أي حسن ذلك الظن المفهوم من (ظننتم) في قلوبكم فلم تسعوا في إزالته فتمكن فيكم فاشتغلتم بشأن أنفسكم غير مبالين بالرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين" [٩ ، جـ ٢٦ ، ص ٩٩] ثم حكم الله على ظنونهم بقوله (وظننتم ظن السوء) فهو ما قصد به

الظن السابق فأعيد لتشديد التوبيخ والتسجيل عليه بالسوء ، أو هو عام فيشمل ذلك الظن وسائر ظنونهم الفاسدة كظنهم بالدين وبمن بقي من المؤمنين لأنهم جزموا باستئصال أهل الحديبية وأن المشركين ينتصرون ثم يغزون المدينة بمن ينضم إليهم من القبائل [١ ، جـ ٢٦ ، ص ٩٩ ؛ ٣٦ جـ ٢٦ ، ص ١٦٤].

وهذه الظنون لم تخرج من بواطنهم ولكن الله أطلع نبيه على خفاياهم فإن قوله (بل ظننتم) بدل اشتمال من جملة (بل كان الله بما تعملون خبيرًا) في الآية السابقة [٣٦ ، جـ ٢٦ ، ص ١٦٤].

(٢) قال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ ﴾ .

فقوله (وطائفة قد أهمتهم) هم المنافقون الذين كان همهم أنفسهم بنجاتها من القتل في مقابل المؤمنين الذين كان همهم إقامة دين الله ورضا الله ورسوله فوصفهم الله بقوله (يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية ...) فأساؤوا الظن بربهم وبدينه وبنبيه وظنوا أن الله لا يتم أمر رسوله وأن هذه الهزيمة هي الفيصلة والقاضية على دين الله ، فكان من رد الله عليهم (قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم...) [٣٠ ص ١٢٠] .

ففي المثالين السابقين يتكرر ظنهم – الذي يمثل رغبتهم - باستئصال الرسول والمؤمنين ومن ثم نهاية الدين الذي جاؤوا به وهكذا هم في كل المعارك كما في غزوة الأحزاب عند قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ ﴾ [الأحزاب: ١٢] وكما في غزوة تبوك عند قوله: ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [التوبة: ٥٢] فالتربص: هو الانتظار بالشيء أو الأمر ينتظر زواله أو حصوله [٢٣ ، ص ١٨٥] . فالتربص مبني على الظن السيء الذي تكنه أنفسهم وهو على تعبير القرآن (إحدى الحسنيين) أي الموت في سبيل الله فهو في نظرهم أمر مكروه لأنه موت وهو في نظر الرسول والمؤمنين خير لأن المجاهد يظفر بإحدى الحسنيين – النصر أو الشهادة -.

(٣) قوله تعالى: (إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾) [النور: ١٩].

وهذه الآية وردت تعقيبًا على قصة الإفك حيث كان للمنافقين دور كبير في نشر الخبر وإشاعته [٥٠ ، جـ ١٦ ، ص ٢٠٦] ، فذكر في السياق (يحبون) فإشاعة الخبر لم يكن بسبب الخبر ودلائله قوة أو ضعفًا بل كان بسبب محبتهم لذلك ورغبتهم أن ينتشر بحيث يكون صفة للمؤمنين. وهكذا دأب المنافقين في كل عصر يتتبعون الثغرات لينفذوا منها إلى إشاعة الاتهامات الباطلة في صفوف المؤمنين محبة منهم لذلك ورغبة، لا أن ذلك الأمر حق في ذاته.

(ب) آثار سوء الظن

للظن السيء آثار مفسدة سواء على صاحبها أو على المجتمع بشكل عام.

فأما أثره على النفس فإن سيء الظن مشغول دائمًا بما ظن به لأن النفس لا تقف عند حد فلا يكفيها انتهاك عرض أخيها في الباطن بل تمضي بأز الشيطان للتأكد من ظنها من تجسس وتحسس وتتبع وبث للشائعات فهو لا يهدأ ولا يقر له قرار مشتغل بعرض غيره فيجتمع له أمور بعضها أسوأ من بعض:

- فقدان الراحة النفسية عندما أشغل نفسه بالتفكير والتحليل وتدوير المواقف في عقله حتى رسخ له الظن السيء وقديمًا قيل: من راقب الناس مات همًا.

- خسران مودة وعون أخيه المسلم، فإنه بالظن في أحوال الناس خسر الانتفاع بمن ظنه ضارًا، أو الاهتداء بمن ظنه ضالاً أو تحصيل العلم ممن ظنه جاهلاً ونحو ذلك [٣٦، جـ ٢٦، ص ٢٥٢] في مجال المعاملات من جهة الغش والغدر ونحوه.

- العقوبة من الله جزاء فعله فإن الله قد قال: (إن بعض الظن إثم) فالظان ظن السوء بغير أدلة تقوى بمن ظاهرهم الصلاح أو البراءة من المظنون به يوقع الظان في الإثم ومن ثم العقوبة من الله لأن ذلك من شعب الظلم المنهي عنه. وفي مثل هذا يقول تعالى عن آثار فعالهم: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾ ﴾ [الأحزاب: ٥٨] وفي الحديث عن أبي ذر رضي الله عنه قال: "سألت النبي صلى الله عليه وسلم أي العمل أفضل؟ قال: إيمان بالله وجهاد في سبيله، قلت: فأي الرقاب أفضل؟ قال: أعلاها ثمنًا وأنفسها عند أهلها، قلت: فإن لم أفعل؟ قال: تعين ضائعًا — ورواية مسلم صانعًا — أو تصنع لأخرق قال: فإن لم أفعل؟ قال: "تدع الناس من الشر فإنها صدقة تصدق بها على نفسك" (أخرجه البخاري: كتاب العتق، باب أي الرقاب أفضل [١٤، جـ ٥، ص ١٤٨]، ومسلم: كتاب الإيمان، باب كون الإيمان بالله أفضل الأعمال [٥٩، جـ ٢، ص ٧٣].

أما آثار سوء الظن على المجتمع فغالبًا ما تكون عند العمل بالظن سواء بالقول من الغيبة والنميمة، أو العمل كالتجسس أو تنزيل الظن منزلة اليقين في التعامل بحسبه.

ومعلوم ما لذلك من أثر في التنافر والفرقة بين المسلمين والله سبحانه يقول: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [الحجرات: ١٠] وذلك في سورة الحجرات ثم ساق بعدها عددًا من الأمور المنهي عنها والجامع بينها هو تعكير صفو الأخوة فنهى عن السخرية بين الناس بكل أنواعها جماعات وأفرادًا فنهى عن اللمز والتنابز بالألقاب، ثم نهى عن كثير من الظن وأتبعه بالنهي عن التجسس والغيبة وختم ذلك بما يكون سببًا في البقاء على أواصر الأخوة حيث ذكرهم بأن أصل خلقهم واحد مما يثير في النفس عاطفة القرابة التي تبعث على التآخي والتناصر وأن من حكمة توزيعهم شعوبًا وقبائل هو التعارف والتآخي. فكان نسق آيات سورة الحجرات يدل على التآخي ونبذ الفرقة بكل معانيه، وبالتالي فقد شكل سوء الظن أحد الدعائم الرئيسة في هدم الأخوة وإحداث الفرقة بين المسلمين.

وسبق ذكر شطر من حديث أبي هريرة المتفق عليه في الظن ونذكر هنا رواية أخرى للحديث مطولة تتضح فيها آثار سوء الظن على المجتمع:

"إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ولا تحسسوا ولا تجسسوا ولا تنافسوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانًا كما أمركم. المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره، التقوى ههنا، التقوى ههنا 'ويشير إلى صدره' بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام: دمه، وعرضه، وماله، إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم" (أخرجه مسلم بلفظه: كتاب البر، باب تحريم ظلم المسلم وخذله) [٥٩ ، جـ ١٦ ، ص ١٢١] .

ويرد في ذلك أن إحداث الفرقة بين المسلمين مقصد أساس للشيطان كما في الحديث "إن الشيطان قد أيس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب ولكنه لم ييأس من التحريش بينهم" (أخرجه مسلم: كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب تحريش الشيطان ٥٩، جـ ١٧، ص ١٥٦] ولا شك أن سوء الظن من أسبابه إلقاء الوساوس من الشيطان عن طريق الخواطر فما يزال بالعبد حتى يحقق ظنه وتحدث آثار الفرقة فالظن إذًا أولى لبنات الفرقة بين المسلمين فإنه إن لم يدفع ويعالج حدث انتهاك أعراض المسلمين التي أمر الإسلام بحفظها كما في الحديث السابق.

لكن يجدر التنبيه إلى أن آثار سوء الظن تتفاوت حسب الأحوال فهناك ظنون لم يتعدّ ضررها صاحبها حين حرم نفسه الانتفاع بمن يمكن الانتفاع منه بناءً على ظنونه الفاسدة، وهناك ظنون تعدى ضررها عندما خرجت إلى حيز العمل وهذه أيضًا يحدث التفاوت في ضررها فالدرجة الأولى من الضرر عندما يحدث تتبع للعورات بالتجسس والتحسس ثم يعقبها التكلم بها فيحصل انتهاك عرض المسلم، وأعلى من ذلك عندما ينتج عن ذلك تلقف تلك الاتهامات الناتجة من الظنون الفاسدة وإشاعتها بين الناس وسيأتي تفصيل لذلك في المبحث اللاحق — إن شاء الله -.

المبحث السادس:
هدي القرآن في التعامل مع ظنون الآخرين

من المباحث المهمة التي ينبغي مناقشتها هو دور المسلم أمام الظنون السيئة من الآخرين إذ إن إحسان التصرف أو إساءته له دور كبير في تأديب الإنسان الظنون أو استرساله. فإن المجتمع حينما يتقبل ظنونه ويروجها فإنه تحصل بغيته من إضرار أخيه المسلم وحينما يردع يكون ذلك إعانة له على الكف عن أعراض المسلمين، ومعلوم أن

مجال الحديث هنا عن العمل بالظن لكن لما كان أثرًا للظن استحق إفراده بالحديث. ويرد في ذلك مثالان:

المثال الأول: ما نزل من القرآن في كيفية تعامل بعض أفراد المجتمع مع خبر الإفك الذي بني على الظنون الفاسدة: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ [النور: ١٤ -١٩].

فالمتدبر في الآيات يتبين له كيف أصاب أم المؤمنين الأذى عند خوض الخائضين في عرضها بسبب تلقي هذه الظنون الكاذبة ونشرها ولو أنها كانت حبيسة ظن لم يتسع ضررها إلى هذا الحد. ويدل عليه من السياق ما يلي:

- التعبير عن العمل بالظن بقوله (فيما أفضتم) والإفاضة من فاض الماء إذا سال منصبًا [٢٣، ص ٣٠٧] والمعنى خضتم، فصور كثرة الحديث عن هذا الظن السيء بالشيء الذي لم تحمله صدورهم حتى فاض على ألسنتهم لأنهم لم يدفعوه بإحسان الظن فخرج على الألسنة.

- التعبير بقوله (تلقونه): قال مجاهد والحسن: تروونه بعضكم عن بعض [٣٥، جـ ١٩، ص ١٣٢]. والتلقي والتلقف والتلقن متقاربة المعاني إلا أن في التلقي معنى

الاستقبال، وفي التلقف معنى الخطف والتلقن معنى الحذق والمهارة [١ ، جـ ١٨ ، ص ١١٨] . فعبر هنا بالتلقي أي أن الناس استقبلوا خبر الإفك ولم ينكروا على أصحاب هذه المقالة فكان ذلك سببًا في انتشاره ولو أن كل من سمع هذا الخبر فعل كما فعل أبو أيوب فظن خيرًا واستعظم الحديث في الأعراض ولم يتناقل الخبر لما انتشر ولما كبر أذى من وقع عليه الظن.

- التعبير بما يشعر أنه مجرد قول لا يمتد إلى الحقيقة عندما قال (بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم). وفي الآية عتاب للمجتمع على مجرد التلقي من لسان إلى لسان والإفاضة في الحديث وإن لم يكن المخبِر ولا المخبَر مصدقين [٣٩ ، جـ ١١ ، ص ٢٨٢] . قال أبو حيان: وتديرونه فيها من غير علم لأن الشيء المعلوم يكون في القلب ثم يعبر عنه اللسان وهذا الإفك ليس محله إلا الأفواه) [١٦ ، جـ ٦ ، ص ٤٣٧] . قال الرازي: ".. وذلك يدل على أنه لا يجوز الإخبار إلا مع العلم، فأما الذي لا يعلم صدقه فالإخبار عنه كالإخبار عما علم كذبه في الحرمة، ونظيره ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ [الإسراء: ٣٦] [٢٢، جـ٢٣، ص١١٦] .

- بيان ما ترتب عليه مس العذاب بثلاثة آثام تلقي الإفك — التكلم به — استصغاره (وتحسبونه هينًا) [٢٢ ، جـ ٢٣ ، ص ١١٦] ، وبالتالي ينبغي الحذر من تلك الآثام الثلاثة وهي عند التأمل سبب تلقي الظنون وانتشارها. فإن في المجتمع أفراد شغلهم الشاغل تطيير الأخبار كل مطار يتلقى لسان عن لسان بلا تثبت ولا روية ثم ينشره بفمه ولسانه بلا وعي ولا تعقل فتراه يقذف بالكلام ويطير به هنا وهناك [٢٨ ، ص ٧٧] . فذم الله في هذه الآيات هذه الفئة وأرشدنا إلى الأسلوب الأمثل لمثل هذا الحال كما أسلفنا.

المثال الثاني : قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ۝٦ ﴾ [الحجرات : ٦] هذه الآية فيها مباحث عديدة نذكر منها ما يخص الموضوع.

اختلف المفسرون في ذكر سبب نزول الآية ذكرها الطبري في تفسيره [٣٥ ، جـ ٢٢ ، ص ٢٨٧] والذي يعنينا في هذا المقام ما حوته الآية من معان، ولذلك يقول الحسن: "فوالله لئن كانت نزلت في هؤلاء القوم خاصة إنها لمرسلة إلى يوم القيامة ما نسخها شيء" [١ ، جـ ٢٦ ، ص ١٤٥].

والآية ترشد إلى كيفية التعامل مع الأخبار التي تذكر على عهدة قائلها دون وجود دليل فذكر الوسيلة التي بها كيفية التعامل ثم ثنى بذكر الأثر الناتج عند عدم فعل تلك الوسيلة، فأما الوسيلة فهي في قوله (فتبينوا) والتبين: طلب البيان والتعرف، فالتبين يفيد قوة الإبانة والتوضيح وظهور الأمر واستظهار صدق الخبر من كذبه.

وقراءة (فتبينوا) هي قراءة الجمهور بمعنى فافحصوا واكشفوا. وحجتهم قول النبي صلى الله عليه وسلم "ألا إن التبين من الله والعجلة من الشيطان فتبينوا" [٣٥ ، جـ ٢٢ ، ص ٢٨٨]. وقرأ حمزة والكسائي (فتثبتوا) بالثاء أي فتأنوا وتوقفوا حتى تتيقنواصحة الخبر [٢٧ ، ص ٢٠٩] . والفاسق: فسر في الآية وغيرها بالكاذب كما في قول ابن زيد [٣٥ ، جـ ٢٢ ، ص ٢٩١] (١)، والنبأ هو الخبر الغائب عن المخبَر إذا كان له شأن.(٢)

---

(١) والفسق يختلف معناه وما يؤدي إليه باعتبار السياق الوارد فيه فهو في القرآن نوعان، مفرد مطلق، ومقرون بالعصيان، والمفرد نوعان: نوع مخرج من الإسلام، ونوع لا يخرج من الإسلام كآية الحجرات، وللاستزادة ينظر المبحث كاملاً في الضوء المنير لابن القيم [٥١ ، جـ٥ ، ص ٤١٣ — ٤١٤].

(٢) وقال الراغب: النبأ خبر ذو فائدة عظيمة يحصل به علم أو غلبة ظن ولا يقال للخبر في الأصل نبأ حتى يتضمن هذه الأشياء الثلاثة [٢٣ ص ٤٨١].

فمعنى الآية: تبينوا الحق على غير جهة ذلك الفاسق، فخبر الفاسق يكون داعيًا إلى التتبع والتثبت، قال ابن القيم: (ههنا فائدة عظيمة لطيفة وهي أنه سبحانه لم يأمر برد خبر الفاسق وتكذيبه ورد شهادته جملة وإنما أمر بالتبين فإن قامت قرائن وأدلة من خارج تدل على صدقه عمل بدليل الصدق، ولو أخبر به من أخبر)[٥١ ، جـ ٥ ، ص ٤١٤] ، وإنما كان الفاسق معرضًا خبره للريبة والاختلاق لأن الفاسق ضعيف الوازع الديني في نفسه، وضعف الوازع يجرؤه على الاستخفاف بالمحظور وبما يخبر به في شهادة أو خبر يترتب عليه إضرار بالغير أو بالصالح العام، ويقوي جرأته على ذلك دومًا [٣٦ ، جـ ٢٦ ، ص ٢٢٩] .

أما عن أثر تلقي الظنون السيئة وتقبلها واعتمادها فهي في قوله تعالى (أن تصيبوا قومًا بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين) حيث أمر بالتبين واستيضاح الصدق وتحريه بالتأني في الحكم والعمل به لئلا يصيبوا من جاء النبأ عنه بجهالة. والإصابة: أكثر ما تطلق على إيصال الضر: أي أن تصيبوا قومًا بفعل من أثر الجهالة أي بفعل من الشدة والإضرار [٣٦ ، جـ ٢٦ ، ص ٢٢٩] ، والجهالة: جهالة حال القوم [١١ ، جـ ٧ ، ص ٤٦١ ؛ ٣١ ، جـ ٨، ص ١١٨] ، قال القرطبي "... وإنما العمل بالجهالة قبول قول من لا يحصل غلبة الظن بقبوله" [٥٠ ، جـ ١٦ ، ص ٣١٣] .

إذًا فالأثر الأول: هو إصابة المخبر عنه - بدون تحرٍ - بالضرر.

وهذا أمر قد تقرر شرعًا من حيث وقوع الظلم على المحكوم عليه، والظلم أمر تعارفت الفطر والعقول والشرائع السماوية على ذمه، ويرد في هذا المقام فعل ابن مسعود لما أتى بالرجل فقيل له: هذا فلان تقطر لحيته خمرًا، فقال عبدالله: إنا قد نهينا عن التجسس ولكن إن يظهر لنا شيء نأخذ به" (أخرجه أبو داود: كتاب الأدب، باب النهي عن التجسس [٢٠، جـ ٥، ص ٢٠] وابن أبي حاتم [١٢، جـ ١٠، ص ٣٣٠٥]).

أما الأثر الثاني: فهو الوقوع في الإثم وقد استخرج الرازي من هذا المقطع من الآية فائدتين: الأولى: تقرير التحذير وتأكيده والثانية: مدح المؤمنين، أي لستم ممن إذا فعلوا سيئة لا يلتفتون إليها، بل تصبحون نادمين عليها [٢٢ ، جـ ٢٧ ، ص ١٢١] .

وحاصل الأمر من المثالين السابقين أنه ينبغي على المسلم تجاه ظنون الآخرين أمران:

الأول: إحسان الظن بالآخرين، إذا كان ظاهرهم الصلاح ومن ثم الكف عن تنقيل الخبر وإشاعته، كما في حق أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

الثاني : عند ورود خبر له شأن عن قوم تجهل حالهم فينبغي التأني أولاً إذ بالتأني يتمكن المرء من تقليب الأمر وتدويره ومن ثم القيام بخطوات عملية يكون بها استيضاح الأمر صدقًا أو كذبًا، فإن كان كذبًا توقف لئلا يوقع الضرر بالغير ظلمًا فيقع عليه الإثم الذي يندم عليه ويظل يؤرقه. وإن كان صدقًا بحث في الأحوال والقرائن التي صاحبت الفعل حتى يحسن التصرف ولا يندم.

فإذا امتثل كل أفراد المجتمع بذلك كان هذا حدًا للأنفس المريضة التي تبث الشائعات بمن تسيء الظن بهم حقدًا وحسدًا فينتج من ذلك ردع لهم عن التحدث بظنونهم السيئة إذا رأوا كيف أن المجتمع لا يتقبلها، وإذا حبست تلك الظنون في النفس فإنه بالتدريج يحصل الحد منها إلى أن يتعود صاحبها عدم تحقيق تلك الظنون وطردها من خاطره كلما حلت.

وثمة أمر ثالث يتبع هذا الموضوع، وهو ما ينبغي على المسلم من صيانة عرض نفسه عن ظنون الآخرين بعدم إيرادها مورد الشبهات، وإن وجد نفسه لابد في موضع شبهة فإن عليه المبادرة بالتوضيح والبيان لمن رآه لئلا يظن به سوءًا لأن الشيطان يسارع في إلقاء الظنون السيئة في نفوس الآخرين عند رؤية الشبهة وهذا ما نبه إليه الرسول صلى الله

عليه وسلم عند وقوفه مع صفية – أم المؤمنين – وهو معتكف، ففي الحديث: "أن صفية زوج النبي صلى الله عليه وسلم جاءت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوره في اعتكافه في المسجد في العشر الأواخر من رمضان فتحدثت عنده ساعة ثم قامت تنقلب فقام النبي صلى الله عليه وسلم يقلبها، حتى إذا بلغت باب المسجد عند باب أم سلمة مر رجلان من الأنصار فسلما على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لهما النبي صلى الله عليه وسلم: على رسلكما إنما هي صفية بنت حيي فقالا: سبحان الله يا رسول الله وكبر عليهما، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: إن الشيطان يبلغ من ابن آدم مبلغ الدم وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئًا" (الحديث أخرجه البخاري بألفاظ متعددة في أبواب كتاب الاعتكاف [١٤ ، جـ ٤ ، ص ٢٧٨ - ٢٨٢]).

فمن شفقة الرسول صلى الله عليه وسلم بأمته أنه خشى على هذين الرجلين من الأنصار عندما رأوه يرد صفية إلى منزلها أن يكونا وقعا في ظن السوء به فيهلكا فقال لهم (على رسلكما) أي هنيئكما في المشي فليس هنا شيء تكرهانه (إنما هي صفية بنت حيي) وفي رواية أنهما قالا (وهل نظن بك إلا خيرًا) فقال لهما: (إني خشيت أن يقذف في قلوبكما).

قال ابن حجر: والمحصل من هذه الروايات أن النبي صلى الله عليه وسلم لم ينسبهما إلى أنهما يظنان به سوءًا لما تقرر عنده من صدق إيمانهما ولكن خشي عليهما أن يوسوس لهما الشيطان ذلك لأنهما غير معصومين فقد يفضي بهما ذلك إلى الهلاك فبادر إلى إعلامهما حسمًا للمادة وتعليمًا لمن بعدهما إذا وقع له مثل ذلك... ثم ذكر من فوائد الحديث: وفيه التحرز من التعرض لسوء الظن والاحتفاظ من كيد الشيطان والاعتذار، قال ابن دقيق العيد: وهذا متأكد في حق العلماء ومن يقتدي به، فلا يجوز لهم أن يفعلوا

فعلاً يوجب الظن بهم وإن كان لهم فيه مخلص لأن ذلك سبب إلى إبطال الانتفاع بعلمهم" [١٤ ، جـ ٤ ، ص ٢٨٠] .

ويرد في مقام التحذير من إيراد النفس موضع الشبهات ما جاء عن سعيد بن المسيب : (كتب إلي بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : وذكر منه "ومن عرض نفسه للتهم فلا يلومن إلا نفسه..." أخرجه البيهقي في الشعب [٩ ، جـ٦ ، ص ٣٢٣] .

المبحث السابع:

بعض مجالات الظن غير ما ذكر

للظن الذي أنيطت به الأحكام مجالات حسب الموضوع الذي حصل الظن منه ، وما سبق الحديث عنه في المباحث السابقة يغلب عليه الظن بين الخلائق فيما يترتب عليه الظلم والفرقة بين المسلمين.

لكن هناك مجالات للظن غير ما ذكر تختص بالظن بين الخلق فيما به علاقتهم بربهم ومن ذلك :

الظن بمصائر الناس يوم القيامة ، وهذا أمر مهم في العقيدة ، إذ أن اختلاف أحوال الناس بين كافر ومسلم ، مؤمن ومنافق ، كثير الطاعة وكثير المعاصي ، هي أحوال باعتبار الأعمال في الحياة الدنيا وما يترتب عليها من أحكام ، أما مصائرهم يوم القيامة عند التعيين أي الحكم على شخص بعينه فهي إلى الله ولا يحق لأحد الحكم لآخر بجنة أو نار ، أو غفران ذنوب أو عدمها بل حتى الحكم على النفس منهي عنه إذ هو حكم مبني على الظن والعلم عند الله في ذلك.

فنهينا عن تزكية النفوس كما في قوله تعالى: ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾ ﴾ [النجم: ٣٢] وقال في ذم اليهود والنصارى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ﴾ [النساء: ٤٩].

فإذا نهى الله عن الحكم على النفس مع أنه صاحبها ويعلم حالها – نسبيًا – فكيف بالحكم على الآخرين الذي يقطع بجهل المتكلم عن حاله لأن القلوب لا يطلع عليها إلا الله، ولذلك كان عقوبة من حكم على الآخر بعدم المغفرة أن أحبط عمله ففي الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حدث أن رجلاً قال: والله لا يغفر الله لفلان وإن الله تعالى قال: من ذا الذي يتألى(١) علي أن لا أغفر لفلان، فإني قد غفرت لفلان وأحبطت عملك أو كما قال" (أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي عن تقنيط الإنسان من رحمة الله) [٥٩، جـ ١٦، ص ١٧٤].

وفي الحديث أيضًا "إذا قال الرجل لأخيه يا كافر، فقد باء بها أحدهما فإن كان كما قال وإلا رجعت إليه" (أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب من كفر أخاه من غير تأويل).

الخاتمة

تبين من البحث ما يلي :

- أن الظن ليس عملاً منفصلاً عن غيره بل هو عبارة عن عملية معقدة ترجع إلى ثلاثة أمور: الظان، المظنون به، الموقف الذي بني عليه الظن، فحال الظان يختلف من حيث صحة قلبه وسقمه، فصحيح القلب سليم الصدر وبالتالي فهو يحسن الظن

---

(١) قال النووي، ومعنى يتألى: يحلف والإلية: اليمين [٥٩، جـ ١٦، ص ١٧٤].

بإخوانه طالما أنه يجد له في الخير محملاً ، ومريض القلب بأحد العلل كالنفاق والحسد والحقد والغيرة والأنانية لا يحب الخير للآخرين وبالتالي هو سيء الظن بهم.

والمظنون به قد يوجد فيه ما يؤكد الظنون السيئة به وبالتالي لا يلام من ظن به السوء فالله لم يحكم على كل الظن بأنه إثم ، وقد لا يوجد به ذلك فينبغي عليه صيانة عرض نفسه وعدم وضعها موضع الشبهات وأن يدرأ عن نفسه عند حدوث ما يشبه ذلك.

والموقف الذي بني عليه الظن هو فتيل الظن فقد يكون بفعل أو قول أو كتابة أو حتى حركة لا يقصد بها صاحبها شيئًا.

وبالتالي فإن الظن عملية فكرية تدور في النفس بفعل تلك العوامل الثلاثة فينتج عنه حسن الظن أو سوؤه فقد يحدث موقف واحد ويتفاوت رد فعله من شخص لآخر بموجب تلك العوامل ، وللعلاج لابد من تحليل الظن من كل أبعاده ليصل إلى الموقف السليم ، الذي لا يظلم فيه أخاه ولا يوقعه في الإثم ، وهذا في عدد من المحاور.

- حسن الظن غير داخل – على الصحيح في آية النهي عن الظن من سورة الحجرات. وفي العموم هو أمر محمود بل هو من صفات المؤمنين ودليل على سلامة الصدر ، وهو من حقوق الأخوة.

- سوء الظن هو المنهي عنه وأحواله تختلف :

١ - إن توفر في المظنون به دلائل قوية ظاهرة بما يظن به من السوء فالأصح أن هذا الظن غير منهي عنه. ولكن الاحتياط منه مطلوب.

٢ - إن ضعفت الدلائل بحيث كانت قابلة للتحوير وتغيير محملها من نفس لأخرى فهنا يكون محل النهي عن سوء الظن إذ الأصل براءة العرض فلا يتعرض له إلا بدلائل قوية خصوصًا إذا استحضرنا حقوق الأخوة الإسلامية.

٣ - قد يشتد مرض القلب فيسيء الظن حتى لو لم تتوفر أي دلائل ضعيفة أو قوية فيكون محض افتراء وبهتان وهذا أشد إثمًا من سابقه.

- الظن يمر في النفس بعدة مراحل ابتداء من الخواطر ثم ينتقل إلى تحقيق تلك الخواطر في الذهن وهذا هو الظن المقصود في النهي على الصحيح.

وبالتالي فإن علاج الظن يبدأ من المرحلة الأولى وهي الخواطر فيكون بالاستعاذة من الشيطان الرجيم أولاً إذ أن غالب ذلك يكون من الوسوسة ثم بمحاولة استحضار محاسن المظنون به ووضع نفسه موضعه ليرى هل يحب ذلك أم يكرهه ثم بالاستغفار، وكل هذا قبل أن يصل لتحقيق الظن في النفس.

- خطورة الظن تكمن في أنه عامل من عوامل إيذاء المسلمين - إن ترك للنفس هواها - إذ هي لا تقف عند حد فلا تكتفي بمجرد الظن بل تطلب التأكد والإثبات فيحدث التجسس وتتبع العورات، أو لا يهمها التأكد فتسارع إلى إشاعة الفاحشة ونقل الكلام بالغيبة والنميمة فتحدث الفرقة والبغضاء بين المسلمين.

- على المجتمع التصدي لأصحاب الظنون السيئة فقد يحدث منهم بث الأخبار الكاذبة المبنية على مجرد الظن فينبغي التبين والتثبت قبل الحكم على من وقع عليه الظن، كما ينبغي عدم نقل الأخبار الواردة من هذا القبيل إذ أن تلقيها ونقلها من حب إشاعة الفاحشة بين المؤمنين وهي من صفات المنافقين.

- سوء الظن من صفات المنافقين البارزة وقد تكرر ذكرها في القرآن في سياق الحديث عن المنافقين وهو دليل على مرض القلب.

- حسن الظن من صفات المؤمنين وهو دليل على سلامة الصدر.

المراجـــــع

[١] الآلوسي، شهاب الدين محمود، *روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني*. ط٤، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٥ – ١٩٨٥ .

[٢] الإمام أحمد بن حنبل الشيباني، *الزهد*، القاهرة، دار البيان للتراث، ١٤٠٨ – ١٩٨٧.

[٣] ـــ ، المسند، بيروت، دار صادر ، د.ت .

[٤] الألباني ، ناصر الدين، *سلسلة الأحاديث الصحيحة*، ط٤، بيروت: المكتب الإسلامي، ١٤٠٥ .

[٥] ـــ ، *سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة*، ط٤، بيروت، دمشق: المكتب الإسلامي، ١٣٩٨هـ.

[٦] ـــ ، *صحيح الجامع الصغير*، بيروت: المكتب الإسلامي، د.ت .

[٧] ـــ ، *ضعيف الجامع الصغير*، بيروت: المكتب الإسلامي، د.ت .

[٨] البغوي، الحسين بن مسعود، *معالم التنزيل*، تحقيق: خالد العك، مروان سوار، ط٢، بيروت: دار المعرفة، ١٤٠٧هـ.

[٩] البيهقي، أحمد بن الحسين. *شعب الإيمان*، تحقيق: أبي هاجر محمد السعيد، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

[١٠] الترمذي، محمد بن عيسى. *سنن الترمذي*، تحقيق: أحمد شاكر. ط٢. القاهرة: مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ١٣٩٨هـ.

[١١] ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي. *زاد المسير في علم التفسير*، ط٤، بيروت: المكتب الإسلامي، ١٤٠٧هـ.

[١٢] ابن أبي حاتم، محمد بن عبدالرحمن، *تفسير القرآن العظيم*، تحقيق: أسعد محمد الطيب. مكة: مكتبة نزار الباز، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

[١٣] الحاكم، محمد بن عبدالله. *المستدرك على الصحيحين*. بيروت: دار المعرفة، د.ت.

[١٤] ابن حجر، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني. فتح الباري. المكتبة السلفية. د.ت.

[١٥] ـــ . *الكاف الشاف في تخريج أحاديث الكشاف*. مطبوع مع الكشاف. بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٠٧هـ.

[١٦] أبو حيان، محمد بن يوسف. *البحر المحيط*. ط٢. بيروت: دار الفكر، ١٤٠٣ – ١٩٨٣ .

[١٧] الخليل، الخليل بن أحمد الفراهيدي. *العين*. بيروت: مؤسسة الاعلمي للمطبوعات، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م.

[١٨] الخطابي، حمد بن محمد، *أعلام الحديث في شرح صحيح البخاري*، الطبعة الأولى، مكة المكرمة: جامعة أم القرى، مركز إحياء التراث الإسلامي، ١٤٠٩ — ١٩٨٨.

[١٩] الدامغاني، الحسين بن محمد، *الوجوه والنظائر لألفاظ كتاب الله العزيز*، تحقيق: محمد حسن الزفيتي. القاهرة: لجنة إحياء التراث بوزارة الأوقاف، ١٤٠٦، ١٩٩٥م.

[٢٠] أبو داود، سليمان بن الأشعث، *سنن أبي داود*، بيروت: دار الحديث، ١٣٨٨.

[٢١] الديلمي، *الفردوس بمأثور الخطاب*، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٦ — ١٩٨٦م.

[٢٢] الرازي، محمد بن عمر. *التفسير الكبير*. ط٣، بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ت.

[٢٣] الراغب، الحسين بن محمد الأصفهاني. *المفردات في غريب القرآن*، تحقيق: محمد سيد كيلاني. بيروت: دار المعرفة، د.ت.

[٢٤] الرومي، عدنان سالم، وعلي صالح الهزاع. *نفائس الحلة في التآخي والخلة*. ط٢. مكتبة المنار الإسلامية، ١٤٠٤ — ١٩٨٤م.

[٢٥] الزجاج، إبراهيم بن السري. *معاني القرآن وإعرابه*. بيروت: دار عالم الكتب. ١٤٠٨م.

[٢٦] الزمخشري، محمود بن عمر. *الكشاف عن حقائق وغوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل*. ط٢. بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٠٧هـ.

[٢٧] ابن زنجلة: أبو زرعة عبدالرحمن. *حجة القراءات*، تحقيق: سعيد الأفغاني. ط٤. بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٤هـ — ١٩٨٤م.

[٢٨] أبو زيد، بكر بن عبدالله. *تصنيف الناس بين الظن واليقين*. الرياض: دار العاصمة، ١٤١٤هـ.

[٢٩] السخاوي، محمد بن عبدالرحمن. *المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة*. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٣٩٩هـ.

[٣٠] السعدي، عبدالرحمن بن ناصر، *تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان*. بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.

[٣١] أبو السعود، محمد بن محمد. *إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم*. بيروت: دار إحياء التراث العربي. د.ت.

[٣٢] سيد قطب. *في ظلال القرآن*. القاهرة، بيروت: دار الشروق، د.ت.

[٣٣] أبو الشيخ، عبدالله بن محمد، *الأمثال في الحديث النبوي*. عبدالعلي عبدالحميد. بومباي: الدار السلفية. ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

[٣٤] الطبراني، سليمان بن أحمد. *المعجم الكبير*. تحقيق: حمدي عبدالمجيد السلفي. مكتبة ابن تيمية، ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠م.

[٣٥] الطبري، محمد بن جرير. *جامع البيان عن تأويل القرآن*. تحقيق: محمود محمد شاكر. ط٢. مكة: دار التربية والتراث، د.ت.

[٣٦] ابن عاشور، محمد الطاهر. *التحرير والتنوير*. تونس: الدار التونسية، ١٩٨٤.

[٣٧] أبو عبيدة، معمر بن المثنى، *مجاز القرآن*. علق عليه: محمد فؤاد شركس. مؤسسة الرسالة، د.ت.

[٣٨] العجلوني، إسماعيل بن محمد. *كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس*. ط٢. بيروت: دار إحياء التراث العربي. مؤسسة التاريخ العربي، د.ت.

[٣٩] ابن عطية: عبدالحق بن غالب. *المحرر الوجيز*، تحقيق: المجلس العلمي بتارودانت، ١٤١١هـ - ١٩٩١م.

[٤٠] العيني، بدر الدين. *عمدة القاري شرح صحيح البخاري*. بيروت: دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التراث العربي، د.ت.

[٤١] الغزالي، أبو حامد. *إحياء علوم الدين*. بيروت: دار المعرفة، ١٤٠٢ — ١٩٨٢.

[٤٢] الغزالي، محمد. *خلق المسلم*. ط٥. دمشق: دار القلم، ١٤٠٥ — ١٩٨٥.

[٤٣] ابن فارس، أحمد. *مجمل اللغة*. الطبعة الأولى. بيروت: مؤسسة الرسالة. ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤.

[٤٤] الفيروز آبادي، محمد بن يعقوب. *القاموس المحيط*. القاهرة: مؤسسة الحلبي وشركاه، د.ت.

[٤٥] القاسمي، محمد جمال الدين. *محاسن التأويل*. دار إحياء الكتب العربية، د.ت.

[٤٦] القاري، ملا علي. *الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة*. حققه: محمد لطفي الصباغ. ط٢. بيروت: المكتب الإسلامي، ١٤٠٦هـ — ١٩٨٦م.

[٤٧] ابن قتيبة، عبدالله بن مسلم. *تأويل مشكل القرآن*. تحقيق السيد أحمد صقر. ط٣. المكتبة العلمية. ١٤٠١ — ١٩٨١.

[٤٨] ـــــ. *تفسير غريب القرآن*. تحقيق السيد أحمد صقر. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.

[٤٩] القضاعي، محمد بن سلامة. *مسند الشهاب*. تحقيق: حمدي السلفي. بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥م.

[٥٠] القرطبي، محمد بن أحمد. *الجامع لأحكام القرآن*، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٥ — ١٩٨٥.

[٥١] ابن القيم، محمد بن أبي بكر. *الضوء المنير على التفسير*. جمعه علي الحمد الصالحي. الرياض: مؤسسة النور للطباعة، د.ت.

[٥٢] ابن كثير، اسماعيل. *تفسير القرآن العظيم*. القاهرة: دار الشعب، د.ت.

[٥٣] ابن ماجه، محمد بن يزيد القزويني. *سنن ابن ماجه*. تحقيق: وعلق عليه محمد فؤاد عبدالباقي. القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، د.ت.

[٥٤] الإمام مالك، بن أنس. *الموطأ*. ط٢. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٣هـ.

[٥٥] الماوردي، علي بن محمد. *النكت والعيون*. علق عليه: السيد عبد المقصود. بيروت: دار الكتب العلمية، مؤسسة الثقافة، د.ت.

[٥٦] المتنبي، *ديوان المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري المسمى بالتبيان في شرح الديوان*. بيروت: دار المعرفة، د.ت.

[٥٧] ابن منظور، محمد بن مكرم. *لسان العرب*. بيروت: دار صادر، د.ت.

[٥٨] الميداني، *مجمع الأمثال*. تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد. بيروت: دار القلم، د.ت.

[٥٩] النووي، يحيى بن شرف. *صحيح مسلم بشرح النواوي*. ط٣. بيروت: دار الفكر. ١٣٩٨هـ.

[٦٠] ابن هاشم، عبد الملك. *سيرة النبي صلى الله عليه وسلم*. تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد. الرياض. توزيع رئاسة إدارات البحوث العلمية. دار الإفتاء والدعوة والإرشاد. د.ت.

[٦١] الهيثمي، علي بن أبي بكر. *مجمع الزوائد ومنبع الفوائد*. ط٣. بيروت: دار الكتاب العربي، هـ١٤٠٢ — ١٩٨٢م.

Suspicion Between People in The Holy Quraan: Objective Study

Filwah Al Rashid

Assistant Professor of Interpretation and Holy Quraan Sciences in Girls' College of Education in Riyadh

Abstract. Islamic law contains some instructions, forbiddens, and morals that guarantee for the community its consistency and spread love between its members. The Private Apartment chapter in Koran introduced some morals that help us to reach these goals. One of these morals is forbidding suspicion. This objective interpretation research spots the light on suspicion and its consequences on people and community. Therefore, I collected all the verses that are related to the subject. I gave the definition of suspicion, its divisions, and the phases that suspicion goes through in the human soul until it reaches the illicit level. Then I explained the suitable thereby for each phase. After that I clarified the reasons and the consequences of suspicion. In addition, I clarified as well the reasons of the pleasant suspicion and its effect. Finally, I showed the Koran guidance in dealing with people's suspicion.